الباب الرابع

الترحيل الإجباري الى "كاراجندا"

كانت محطة البضائع المسورة بسور الخشب فقط ، والمضروب حولها حراسة مشددة ، تشبه فى يوم ٢٨ سبتمبر خلية نحل ، اذ كانت تصل كل عشر دقائق ، أو خمس عشرة دقيقة عربة نقل محملة بالألمانيين الذين سيرحلون عن موسكو • فى تلك الأيام الحالكة من أيام الحرب ، عندما كانت تتقدم القوات الألمانية نحو موسكو ، ويحتاج الوضع الى كل عربة فى قطار ، وكل عربة نقل احتياجا ملحا ، وجه هذا العدد الكبير من عربات السكك الحديدية ، وسيارات اللورى لنقل المرحلين وأمتعتهم •

لم ينقطع تردد المرتدين الملابس العسكرية على عربات قطار البضائع صعودا وهبوطا ، وصاح أحدهم :

« لماذا تقفون هنا ؟ اركبوا القطار ! » •

وانطلقنا نحاول الركوب على طول القطار ، كل يبحث عن مكان صغير يقف فيه ، ولكن هؤلاء الناس الذين كانوا جالسين فى القطار جنبا الى جنب ، متلاصقين من شدة الزحام ، صاحوا من بعيد :

« لا يوجد مكان ! » وكان محتما علينا ألا نحاول الركوب ، فالقطار مزدحم ازدحاما شديدا ، لا تجد فيه موضعا لقدم •

وعاد رجال الشرطة مرة أخرى وقالوا : « لماذا لم تركبوا القطار حتى الآن ؟

فقلنا : « لا يمكن هذا أيها الرفيق الضابط ، فليس فى العربات موضع لقدم واحد فضلا عن قدمين ! » •

ولم يقتنع الضباط بهذا ، وقالوا : « سوف نستطيع ذلك حالا » •

وساروا معنا على طول القطار ، لنبحث عن مكان ، يمكن أن نحشر فيه ، واكتشفنا شيئا لم نره من قبل ، فالحراسة العسكرية ، لم تقتصر على المحطة فقط ، بل كان فى القطار حراسة عسكرية من الجيش الأحمر يصحبها بعض الضباط أيضا •

أصدر العسكريون بعض الأوامر ، ولم يرفع الألمانيون أيديهم لحماية أنفسهم من ضغط الزحام ، بل تزمروا بصوت منخفض جدا • وفى

أقل من نصف ساعة كنا — وبعض الذين وصلوا بعدنا — قد قذفنا فى العربات كما تحمل البضائع • لم نستطع الجلوس اطلاقا ، بل وقفنا ، وانتظرنا ما يمكن أن يحدث بعد ذلك •

* * *

الرحلة الى عالم غير آمن

كان يوجد معى فى عربة البضائع الصغيرة حوالى ٥٠ شخصا أعمارهم مختلفة ، ومهنهم متنوعة أيضا ، ويمثلون كل الطبقات الاجتماعية ، من العامل البسيط حتى أستاذ الجامعة الذى اشتهر عن طريق التليفزيون • وكانت أعمارهم من الطفل الذى لم يتجاوز عمره ثلاث سنوات حتى الشيخ ، الذى بلغ الثمانين من عمره • لم يكن أحد منهم يوما ما فى ألمـانيا ، باستثناء بعض الطلبة الشبان الذين لجأوا سياسيا الى الاتحاد السوفييتى ، فبعضهم لم يتعلم اللغة الألمـانية اطلاقا ، وكانوا روسيين مثل كل سكان موسكو ، كان بيننا فتاتين من القرم ، انحدرتا من جمهورية « فولجـا » ورحلتا الى موسكو وهما صغار السن •

أدركت شيئا فشيئا ، لماذا اعتبر هؤلاء الناس فجأة « ألمانيون » ورحلوا الى « كيسيل — أوردا » ، فقد جرى احصاء للسكان فى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٣٩ م ، وكان من المفروض أن يكتب بجانب « الوطن التابع له » الجنس المنحدر منه ، فأملوا آنذاك — دون تفكير فى العواقب — طبقا لتقاليد متبعة لديهم أو اشباعا لرغبة الظهور بالانتماء الى جنس ذى حضارة ، أنهم ينحدرون من الجنس الألمـانى ، لم يخطر فى بالهم أن هذه الملاحظة ستجر عليهم المتاعب فى حياتهم ذات يوم • والآن ! يجلس هؤلاء الذين لم يكن بامكانهم ذات يوم أن يكونوا ألمانيين ، يجلسون هنا بوصفهم « ألمانيون » ، ويرحلون الى عالم غير آمن ، ويواجهون قضاءهم غير المعلوم •

انضممت فى بادىء الأمر الى أولئك الذين هم فى الحقيقة ألمانيون : أقطاب الحزب الشيوعى الألمانى ، الذين حاربوا فى أسبانيا مع الفرقة العالمية ، ولجأوا سياسيا الى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٣٩ م ، ويجلسون الآن فى هذا القطار بوصفهم « ألمانيون مشكوك فى ولائهم » • وهم زوجة الكاتب الشيوعى « ألبرت هوتوب » وابنتاها « كيتسى » وَ « جيردا » ، و « ارمجارد سيكيرت » بنت الشيوعى الألمـانى « ألفريد سيكيرت » الذى حارب مع الفرقة العالمية ، واعتقل أثناء

الحرب فى سويسرا ، وقد جاءت ابنته الى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٣٤ م ، والتحقت — مثلى — فيما بعد بمعهد المعلمين للغات الأجنبية •

استولى اليأس علينا فى أول مساء لنا فى هذه الرحلة فبدأ الثلاثة الذين حاربوا فى أسبانيا يغنون أغانى مرحة ، فقيل لهم :

« يبدو أنكم مبسوطين ، على الرغم مما نحن فيه » فأجاب أحدهم : « لا يعدو هذا سوى رقصة المذبوح » •

كنت أقدر موقفهم ، وأفهم نفسياتهم ، فهم قد خدموا الحزب بأمانة ، عشرات السنين ، ووضعوا حياتهم على أكفهم فى أسبانيا ، والآن يرحلون الى منطقة نائية فى وسط آسيا » •

وفكرت فى أحوالى الخاصة ، بالأمس كنت لا زلت عضوا فى منظمة الشباب ، وطالبا ، والآن أجلس هنا كـ« أجنبى مشكوك فى ولائه » فى هذه العربة تحت الحراسة المسلحة • غادرت موسكو ، تركت أصدقاء ، ورحلت الى « كيسيل — أوردا » •

ولكنى — وان كان ذلك مستغربا عند القارىء الغربى — لم أشعر بمرارة ، ولم يستول الحقد على مشاعرى ، بل كنت على العكس ، أحاول تبرير هذا الترحيل الاجبارى • من المؤكد — هكذا قلت لنفسى — أن هذا ليس قدرا مؤلما ، ترحيل عضو متحمس فى منظمة الشباب ، فى عربة بضاعة كـ« أجنبى مشكوك فى ولائه » • الى وسط آسيا •

بل انها مأساة ، وخاصة بالنسبة لأولئك الرفقاء الذين خدموا الحزب طول حياتهم ، ثم يكون الجزاء ترحيلهم الى هذه المنطقة النائية ، ولكن هل كان من الممكن حقا ، فى تلك الأيام العصيبة ، حيث تتقدم القوات النازية ، أن يكون هناك وقت ، للتميز بين الألمانيين ، وفقا لمواقفهم مع الحزب الشيوعى ؟

سار القطار عبر السهول الروسية ، واضطر الى الوقوف مرارا على طول الخط فى أماكن خالية (أى غير معدة لأن تكون محطة) ، فليس هناك ما يدعو الى العجلة •

كانت حالة المدن التى مررنا عليها وهى « رياشسك » و « مورشانسك » ، جنوب شرق موسكو ، يوحى بجو سلمى •

ولكن سرعان ما تغير هذا ، فبعد ستة أيام من السفر ، وصلنا الى « بينز » وهى على بعد ٥٥٠ كيلو متر من موسكو ، فوجدنا آلافا من البشر — بين جالس ، ومستلق — فى محطة السكك الحديدية ، وعلى

السلالم ، وفى الشوارع ، والميادين ، لاجئين ، ومرحلين من المناطق الغربية فى روسيا • وعلى الرغم من القواعد الصارمة لتنظيم عملية نقل هؤلاء الناس ، فقد وقف الموظفون المحليون عاجزين عن مواجهة السيل ، الذى لا ينقطع من المهاجرين والمرحلين • وهكذا حط الناس رحالهم ببساطة فى الشوارع ، والميادين آملين أن يتمكنوا مرة أخرى من اللحاق بقطار ينقلهم الى مسافة أبعد تجاه الشرق •

ولكن كان هذا أملا غير منظور تحقيقه • فالقطارات تصل الى « بينزا » وليس فيها موضع لقدم ، ولهذا اضطر الناس الى البقاء هناك أسابيع الى أن يوزعوا أخيرا على مناطق المزارع الجماعية الموجودة حول المدينة •

واصل القطار سيره فى المساء متجها الى « سيزران » و « كويبيشيف » فوصلنا اليها فى ساعة متأخرة من الليل • وأردت النزول مرة أخرى ، ولكن القطــار كان محاصرا فى هذه المرة بالجنود ، الذين كانوا يراقبون ركاب القطار مراقبة صارمة ، فصاحوا : « لا يجوز لأحد مغادرة القطار »

وتساءل أحد المسافرين : « حتى ولو كان للحصول على شربة ماء » ؟

فرد الجندى : « لا ! لا تغادر القطار اطلاقا ! وسوف يتعرض من يغادر القطار لأشد العقوبات ، فلا يجوز لكم النزول ، ما دام القطار واقفا فى هذه المحطة » •

علمنا بعد بضعة أسابيع — بعد أن أقمنا فى وسط آســيا بمدة طويلة — أسباب منع النزول فى هذه المحطة ، ففى ذلك الوقت ، كان العمل قائما على قدم وساق للاستعداد لترحيل الحكومة والوزارات ، والهيئات الدبلوماسية الأجنبية من موسكو الى « كويبيشيف » ، ولم يسمح آنذاك بالسفر الى هذه المدينة الا لكبار الموظفين ، وللشخصيات البارزة •

وعندما غادرنا « كويبيشيف » بدا لنا أن رحلتنا تمر سريعا ، فأصبحنا متفائلين جدا ، وبدأ كثير منا يلعبون « الكوتشينة » ، والآن يبدو كل شىء على ما يرام ، فمابقى بعد « كويبيشيف » فى الطريق الى « كيسيل — أوردا » فى الاتجاه نحو الشرق سوى المرور على « تشاكالوف » وعلى « أكتيوبنسك » وعلى « أرالسك » • كان حديثنا عن حياتنا المقبلة فى « كيسيل — أوردا » لا ينتهى •

وفجأة وقفنا فى منتصف الطريق شرقى « كويبيشيف » عدة ساعات ،

وسمح لنا بمغادرة القطار ، فتمشيت في محاذاة القطار ، وفجأة رأيته لافتة مكتوب عليها « تشيليا بينسك » •

« تشيليا بينسك » ! هذه المدينة لا تقع على الطريق الى « كيسيل ــ أوردا » وعدت بسرعة الى مكانى فى القطار ، وأخبرت زملائى بهذا الخبر ، فارتفعت رؤوس اللاعبين صائحين : اذا كنا مسافرين الى « كيسيل ــ أوردا » فيكون اتجاهنا الجنوب الشرقى ، أما « تشيليا بينسك » فتقع فى الشمال الشرقى •

سألنا الموظف المرافق لنا :

« هل نتجه الى « كيسيل ــ أوردا » ؟ فأومأ برأسه ، ولكن هذا غير صحيح ، فقلت له : « وما دلالة هذه اللافتة اذن « تشيليا بينسك » » ؟

« لا أدرى ! لا أستطيع أن أقول شيئا » • كانت اجابته بتلك اللهجة الخاصة التى عرفتها أثناء اقامتى ــ ست سنوات ــ فى الاتحاد السوفييتى •

لقد اتجه القطار أثناء الليل الى الشمال الغربى ، ونحن الآن عند « بوجوروسلان » فى « بشكيريا » اذن ، لسنا فى اتجاه « كيسيل ــ أوردا » •

لم يكن لدينا أى فكرة عن الوضع فى « كيسيل ــ أوردا » ولكن كنا نعلم على أقل تقدير ، الى أين نحن ذاهبون ! أما الآن ، فلا نعلم شيئا ، حتى اسم المدينة التى سنتجه اليها ، وتحول كل شىء فى الرحلة الى اللا مؤكد !

وفى اليوم السابع عشر فى رحلتنا ، تحرك قطار البضائع الذى يحملنا فجأة مرة أخرى وسمعنا صوتا يصيح : « نحن فى « كازاخستان » » •

وسرعان ما تعالت الأصوات بهذه الجملة ، على طول القطار ، بعرباته الثمانين • وعلى محطة صغيرة رأينا على اللافتة كتابة بالحروف « الكازاخستانية » تحت الكتابة الروسية • وابتدأ اللعب « بالكونتسينة » مرة أخرى • صحيح ! نحن الآن بين « كورجان » المدينة الواقعة غرب « سيبيريا » ، وبين المدينة « الكازاخستانية » « بيتروبافلوفسك » •

وصلنا فى المساء الى أول مدينة كبيرة فى جمهورية « كازاخستان » تلك المدينة التى تحمل الاسم الروسى « بيتروبافلوفسك » فذكرنا أحد المسافرين بأن هذه المدينة كانت فى قديم الزمن ، ملتقى القوافل القادمة من بخارى وطشقند ، اذ كانت محط رحال البضائع القادمة من هناك ،

obeikandl.com

ثم نرحل الى داخل روسيا • ولكن اهتمامنا فى هذا اليوم كان محصوراً فى الحاضر فقط •

رأينا لأول مرة الجنس « الكازاخستانى » ، ويتميزون كلهم تقريبا بالشعر الأسود الفاحم ، والعيون السوداء المسحوبة ، ولون البشرة الخمرى الضارب الى الصفرة ، كما كنا نتخيل دائما صورة « المنغوليين » • وكانت طريقة مشيهم ونسبة أرجلهم الى أجسامهم — السيقان أقصر نسبيا من الجسم — من الأمور التى لفتت أنظارنا •

واصلنا السفر من « بيتروبافلوفسك » متجهين صوب الشرق • ولما كانت قضبان السكك الحديدية لا تتجاوز « بالخاش » ، فيجب أن تنتهى رحلتنا فى أى مكان بين « بيتروبافلوفسك » ، وبين بحيرة « بالخاش » •

كان الجو دافئا ، وأضيف فى محطة « بيتروبافلوفسك » بعض عربات البضائع القديمة التى يغطيها الصدأ ، وكانت مكشوفة ، فجلسنا فى هذه العربات المكشوفة فى آخر القطار ، نتشمس بشمس « كازاخستان » فى أكتوبر ، ونشاهد المنطقة التى نمر بها ، ولكن لم يكن هناك شىء يستحق المشاهدة ، فنحن نسير عبر سهول فقط ، تلمع مثل ألواح المرمر ، لا هضبة ، ولا وهاد فيها • واستمرت هذه المناظر ساعات وأياما • وأثناء عبورنا المنطقة الشمالية فى « كازاخستان » شاهدت بعض المناظر ، التى تثير الاهتمام ، فعلى طول عشرات الكيلومترات ، رأينا على جانبى القضبان « سقالات » خشبية كبيرة ، ملقاة على شكل حواجز عالية •

— « لأى شىء تكون هذه السقالات الخشبية الضخمة » ؟

— « هى للحماية ضد الثلوج ، وتستعمل خاصة ضد العواصف الثلجية » •

— « هل تسقط ثلوج كثيرة هنا » ؟

— « فى الشتاء تنزل الثلوج بكميات ضخمة ، يبلغ ارتفاعها ٨ أو ١٠ وأحيانا ١٥ مترا ولا تستطيع القطارات المرور هنا أياما عديدة رغم كل هذه الاحتياطات » •

— « منظر جميل » علق بذلك أحد الطلبة ، وصفر بأسنانه • ولكننا لم نتأثر كثيرا ، فقد بدا لنا ، أننا ما زلنا على بعد كبير من

وقت حلول البرد ،ونزول الثلوج ، وعلاوة على ذلك فنحن الآن نعبر سهولا والشمس طالعة ، ولدينا — لأول مرة — ما يكفينا من الطعام •

وفى اليوم الثانى والعشرين فى رحلتنا ، وقف القطار فى الساعة الخامسة صباحا ، وبدأ الحرس يجيئون ويروحون ، وهم مشدودو الأعصاب ، ثم فتحت كل الأبواب وصاح صوت :

« وصلنا •• انزلوا كلكم ! » فتدفقنا على النزول ، لم نر منزلا ، ولا طريقا ولا شجرة أو تجيرة ، بل حولنا أشواك وأعشاب •

سألنا الحراس ، ولم نسمع جوابا • وبعد ساعة علمنا أننا فى مكان قريب من منطقة « أوسكوروفكا » وهى تبعد عن « كاراجندا » بـ« ١٢٠ كيلو متر تقريبا » • اذن هنا نهاية الرحلة •

* * *

قرى بدون أسماء

وقفنا حائرين أمام قطار البضائع الذى حملنا الى هذا المكان ، وفى أثناء ذلك كانت المهمات قد أنزلت من القطار ؛ وضوء النهار يزداد شيئا فشيئا ، والآن نستطيع أن نتعرف على المعالم المحيطة بـ« أسكوروفكا » •

وبعد لحظات اقتربت منا عربات الفلاحين ، تجر الخيول بعضها ومعظمها تجره الثيران والجمال ، ولم أصدق عينى ، عندما رأيت جمالا تجر العربات •

كان ضباط قوات الحراسة يزرعون المكان جيئة وذهابا ، وهم متوترو الأعصاب ، وبعد بضع دقائق جاء حارسنا ومعه قائمة ، فأشار الينا قائلا : « اقتربوا منى كلكم ! سأقرأ عليكم الآن قائمة التوزيع ، سوف توزعون كلكم على القرى المحيطة بنا ، بدأ فى قراءة القائمة :

ما هذا ؟ لم أسمع اسم قرية من القرى ، بل سمعت فقط (Possjolok) رقم ٥ ، •••• رقم ١٢ ؛ •••• رقم ٨ ، •••• رقم ٢٤ ، ••الخ •

فكلمة (Possjolok) تعنى مستعمرة ، ووضح أنه لم يكن هنا قرى ، بل مستعمرات بدون أسماء • فهى تحمل أرقاما فقط •

ثم سمعت اسمى : « ليونهارد » مستعمرة رقم ٥ وانتهت عملية التوزيع •

عاودنى الشعور بالانقباض ، مثل ما اعترانى فى بدء الرحلة ، ولكن قلت لنفسى :

ما يجرى على أصدقائى فى الرحلة ، يجرى على ، وبصرف النظر

عن مساواتى معهم فى هذا القضاء ، فلا زالت معى بطاقة شخصية لا تحمل خاتم الترحيل .

أخرجت بطاقتى من جيبى بحرص شديد ، فهى الشىء الوحيد الآن ، الذى لا يزال يربطنى بالحرية . لقد تحدثت فى بداية الرحلة مع الضابط المسئول عن عملية ترحيل هذه المجموعة ، فأكد لى أن كل شىء سوف يسير على ما يرام ، والآن أريد أن أذكره بذلك .

— « أيها الرفيق ضابط الترحيل : أنت تعلم أن بطاقتى ، ليس عليها خاتم الترحيل ، وقد جئت الى هنا ، بناء على اقتراح رئيس شرطة الحى ، الذى كنت أسكن فيه فى موسكو . لقد بين لى حرفيا ، أن لى الحق فى أن أكون حرا ، فى مواصلة سفرى من هنا ، ان أردت .

وبناء عليه ، فأنا أريد الحصول على أمتعتى ، حتى أستطيع مواصلة السفر الى ألمـا — أتا » .

لم يكن مستقبلى معلقا فى يوم ما على جواب من انسان مثلما كان فى هذه اللحظة ، ولكنى كنت مطمئنا من هذه الناحية ، الا أننى سمعت ما لم يكن فى الحسبان :

— « هذا ليس من اختصاصى ، وليس لى الحق فى فعل شىء مثل هذا ، فان كان كلامك صحيحا ، فتستطيع أن تشرح موضوعك لمن يختص بذلك ، وعلى كل حال ، فيجب عليك أن تذهب الآن الى المستعمرة ، التى وجهت اليها » .

— أيها الرفيق ! انظر الى بطاقتى ، فقد استخرجت حديثا ، ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤١ فى موسكو ، وليس عليها أى تحديد لمكان الاقامة الجبرية .

فضحك ساخرا وقال : « المسألة ببساطة ! أنهم نسوا فى موسكو أن يختموا بطاقتك ، ولكن يمكن استدراك هذا الخطأ بسرعة ، فواضح وضوحا لا لبس فيه فى مستنداتك ، أنك ألمـانى » .

لم يعد هناك فائدة من المحاولة معه . اندمجت مبدئيا مع المجموعة ، وقررت أن أجرب حظى مرة أخرى بعد وصولى الى المستعمرة رقم ٥ ، ولم يعد عندى أمل كبير فى النجاح .

وفى غضون ذلك ، وضعنا أمتعتنا على عربات الكارو ، التى تجرها الثيران والجمال . وجلس فوقها النساء والمرضى ، أما الآخرون فساروا بجانب العربات صامتين . كان منظرا رهيبا ، طابور طويل من الناس ،

أعياهم التعب ، وأنهكتهم الرحلة ، يجرون سيقانهم عى الطريق الى المقر الذى هيىء لهم ، ذلك المقر الذى كان قبل عشر سنوات منفى للاقطاعيين ... حتى سائقو العربات « العربجية » كنوا صامتين .

ـ « ما طول الطريق حتى المستعمرة رقم ٥ » ؟

ـ « ليس بعيدا من هنا ! ربما ٢٥ كيلو متر فقط ، سنصل الى هناك فى المساء ، وربما قبل ذلك » .

وواصلنا أسئلتنا ، فتحدث سائق عربتنا عن الحياة فى المزارع الجماعية :

ـ « مزارع جماعية ؟ أنا أظن أن الاقطاعيين نفوا الى هنا » ؟

ثم أجاب وهو يمط بلكلمات كعادة الفلاحين الروس :

ـ « نعم ! لقد كنا اقطاعيين ، ونعيش اليوم هذا النوع من الحياة « الجماعية » !

ـ « ولم تقول : هذا النوع » ؟

بدأ سائق العربة ـ الذى كان اقطاعيا سابقا ـ يحكى ، كيف نفوا الى هنا فى عامى ٣٠ ـ ١٩٣١ م ، وكيف صودرت أملاك هؤلاء الناس ، الذين كانوا يعيشون فى « أوكرانيا » ووسط آسيا ، ثم نفوا الى هذه المنطقة .

كان يتحدث بدون اكتراث ، وكأنه ليس طرفا فى هذه الأحداث ، كان يتحدث كما لو كان يحكى عن أحداث وقعت فى الماضى البعيد جدا ، فى منطقة نائية من الكرة الأرضية .

ـ « لم يكن شيئا هنا آنذاك ، غرست أوتاد فى الأرض ، وعليها لوحة ، مكتوب فيها : المستعمرة رقم ٥ ، رقم ٦ ... الخ . وسيق الفلاحون الى هنا ، ثم قيل لهم : أنهم يجب عليهم أن يساعدوا أنفسهم بأنفسهم ، ثم حفر الفلاحون حفرات فى الأرض ، للوقاية من تقلبات الجو ، ففى الأعوام الأولى مات عدد كبير من الجوع والبرد ، ثم بنوا بمرور الوقت أكواخا من انطين ، فأصبح الوضع أحسن » .

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ « آه ! لم يحدث شيئا جديدا ، غير أننا تلقينا الأوامر بأن نكون مزارع جماعية » .

ـ « وممن تلقيتم هذه الأوامر ؟ من السوفييت المحليين ؟ »

هز السائق رأسه وقال :

— « لا يوجد هنا سوفييت محليين على الاطلاق » •

فتبسمت دون ارادة لهذا التبسم ، فيبدو أن رؤوس الفلاحين عاجزة عن التفكير ، فهو لا يعلم ما يقول ، اذ يوجد سوفييت محليين فى كل منطقة فى الاتحاد السوفييتى ، ولكن تبين لى فى المساء أنه كان على حق •

مشينا نخب بجانب العربة التى يجرها ثور ، فقد كان السير على الأقدام يوما كاملا ، بعد أن سافرنا بقطار البضائع ٢٢ يوما ، عملا شاقا وعنيفا • ولكن كان التلهف على ما سنراه فى تلك المنطقة أقوى من التعب •

وقبل أن تغيب الشمس ، رأينا شيئا على مسافة بعيدة ، يشبه ما يأوى اليه البشر ، وسرعان ما تبين لنا أنها أكواخ صغيرة ، لم تبن من الحجارة ولا من الخشب ، بل من الطين الأحمر • لم نر شبابيك ، بل فتحات صغيرة تسد فى فصل الشتاء كما علمنا بعد ذلك •

قيل لنا عندما وصلنا ، أننا يجب علينا تسجيل أسـمائنا عند « القومندان » ولمـا كنا مضطرين الى الانتظار طويلا ، تجولنا هنا وهناك ، وتحدثنا مع « سكان » هذه المنطقة • كان معظمهم روسيين ، والبعض « أوكرانى » أو « تاتارى » ، وليس فيهم واحد « كازاخستانى »

اقترب منا بعض الفلاحين قائلين :

— آه ! وصلتم ! نحن ننتظركم منذ مدة طويلة ، لقد توقعنا أنكم سترسلون الى هنا أيها الألمانيون •

وحاول بعضنا — وأنا منهم — عبثا أن يشرح لهم أننا ضد الفاشية ، وأعداء لهتلر ، فضحكوا وقالوا :

— « الألمانيون هم الألمانيون » •

هل فهموا حقيقة حالتنا أحسن مما نفهمها نحن ؟

يسود هذه المنطقة صراحة عجيبة ، فلم أر حتى اليوم فى الاتحاد السوفييتى أناسا يعبرون عن أفكارهم دون تورية ، ولا تحلية مثل هؤلاء الناس • وسرعان ما تأكدنا أن كثيرا من الاقطاعيين المنفيين هنا ، لا زالوا الى الآن ضد نظام الحكم الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى •

لم يصدقوا دعوانا أننا ضد « هتلر » ، وظلوا معتقدين أننا من أتباعـه !

— « الى أين وصل « هتلر » فى زحفه ؟ وما رأيكم ، هل سيأتى الى هنا ليحررنا » ؟

اعترتنى قشعريرة ، وتجمد الدم فى أطرافى ، فلم نسمع مثل هذا فى الاتحاد السوفييتى اطلاقا ، وحاولنا مرة أخرى أن نشرح للفلاحين حقيقة موقفنا ، ولكنهم ضحكوا ضحكة دمثة ، ولوحوا لنا بأيديهم ، وقالوا :

— « اذن .. أقيموا هنا بضع سنوات ، فسوف ترون » .

ذهبنا الى « القومندان » ، وهو يسكن فى أكبر مبنى فى المستعمرة ، جلسنا على الأرض ، وانتظرنا صابرين الى أن يحين دورنا . كانت أمزجتنا مختلفة ، فالألمانيون القادمون من « فولجا » ، والذين نشأوا فى قرى ، لم يعتبروا هذا الوضع مأساة ، فهناك — حيث أنشأوا « كلوخوز » (Kolchos) — (مستغمرة زراعية ، يعيش فيها الفلاحون حياة جماعية ، يعملون ولا يملكون) وهنا « كلوخوز » وماذا فى هذا ؟ كان الوضع أشد قسوة على أولئك الألمانيين ، الذين كانوا يعيشون فى الاتحاد السوفييتى ، كلاجئين سياسيين ، وعلى المقاتلين فى أسبانيا ، كما هو مأساة أيضا بالنسبة للمتخصصين تخصصات فنية عالية ، مثل مهندس التليفزيون ، وأستاذ الجامعة . كان بعضهم يتلفت يمينا وشمالا متحسرا .

نودى علينا — واحد بعد الآخر — للدخول على « القومندان » ثم يخرج وبيده ورقة عليها اسم الأسرة التى ينزل عندها . وكان محتما على الفلاحين أن يأووا القادمين الجدد ، ويجب أن يبلغوا « القومندان » بأقل عقبة تعترض سير الأمور كما هو مرسوم لها . ولكن لم توجد عقبات . واستقبل الفلاحون القادمين اليهم دون اعتراض . فقد كان واضحا لهم : من هى الجهة التى أرسلت هؤلاء ! ، ومن هو الذى وزعهم على الأسر ! .

أمسكت بطاقتى الشخصية غير المختومة بخاتم الترحيل الاجبارى ، مقبضا عليها بيدى ، فأنا أعلم أن آخر فرصة لى ، تكمن فى هذه الحجرة ، عند هذا « القومندان » .

فاذا تصرف هذا « القومندان » مثل تصرف الضابط ، قائد الرحلة ، فسيكون ذلك قدرى المحتوم ، ولكن لم يزل عندى أمل ؛ فقد كان قائد الرحلة حريصا على تسليم كل أفراد المجموعة الى الجهة المحددة له ، ولكن يمكن لـ« قومندان » المستعمرة أن يكون لطيفا ، وسوف يسر بنقصان

عدد المجموعة واحدا • وعندما دارت بى هذه الأفكار لاح لى الأمل أقرب الى التحقيق ، وأخيرا نودى اسمى •

أيها الرفيق « القومندان » أحب أن ألفت نظر سيادتكم من أول الأمر الى أنى لا أتبع هذه المجموعة ، المرحلة الى هنا اطلاقا ، بل جئت معها بناء على اقتراح رئيس قسم الشرطة فى موسكو ، وهاهى ذى بطاقتى استخرجت فى موسكو ، ويمكن أن تتأكد بنفسك أن ليس عليها خاتم الترحيل الاجبارى • وأريد أن أواصل سفرى غدا ، أو على أبعد تقدير بعد غد الى « ألمـا — أتا » ، حيث يوجد معهدى ، ولهذا أرجوك ، ألا توجهنى الى أى أسرة فى هذا التوزيع •

نظر الى البطاقة بدقة ، ثم قال :

« حسنا ! نستطيع أن نشطب على اسمك من القائمة ؛ وعلى كل ، فالعدد هنا كثير جدا » •

لم أنتظر هذا الحل بمثل هذه السهولة فى تخيلاتى التى تخيلتها قبل أن أدخل عليه ، ثم غادرت الحجرة ، وأنا أطير فرحا •

كانت أفكارى مشدودة حتى الآن الى هذا الاتجاه : البعد عن هذه المستعمرة بأى وسيلة ، فأنا أريد الاسراع فى مغادرة هذا المكان فقط ، ولكن عندما حصلت على التصريح بمغادرته ، ظهرت مشكلة أخرى : يجب أن أغـادر هذا المكان •• ثم أقطع آلاف الكيـلومترات حتى « ألمـا — أتا » ، وسوف يطلب منى مرارا اظهار بطاقتى وأوراقى الرسمية • ومما لا شك فيه أنى أحمل بطاقة غير مختومة بخاتم الترحيل الاجبارى ، ولكن كلمة « الألمـانى » مكتوبة فيها بوضوح ، ثم شىء آخر : ليس معى نقود كافية ، فعندما غادرت موسكو ، كان معى بضعة من « الروبلات » وكان هذا المبلغ ، بالنسبة لى كطالب ، كبيرا ولكنى لا أملك الآن سوى مبلغ ضئيل •

لم أضعف أمام كل هذه المصاعب التى اعترضتنى ، وصممت على القيام بهذه الرحلة • كان عمرى آنذاك تسع عشرة سنة ونصف ، وكنت سليم البنية ، أتكلم الروسية بطلاقة ، وكنت ممتلئا بالآمال الطائشة •

مكثت بضعة أيام فى المستعمرة رقم ٥ ، وقضيت الليالى فى أماكن متفرقة ، ليلة عند هذا ، وأخرى عند ذاك ، كنت أنام على الأرض ملفوفا فى معطفى فقد تعودت على هذا أثناء الرحلة الطويلة •

ثم بحثت عمن يستطيع شراء بعض ملابسى ؛ وكان الشىء الذى عرضته للبيع معطفا خفيفا ، وبنطلونا •

وافقت على بيعهما — بعد مساومة طويلة — لفلاحة « تاتارية » . ولم أحصل منها على مبلغ كبير • ثم أعطيت ربع هذا المبلغ لفلاح عقابل توصيلى الى محطة « أوسكوروفكا » •

اتجهت الى شباك التذاكر — وكان قلبى يدق دقا سريعا — لشراء تذكرة الى « كاراجندا » ، نظر موظف السكك الحديدية نظرة قصيرة الى بطاقتى ، ثم أعطانى التذكرة دون أن ينبس بكلمة واحدة ، وبعد أربع ساعات كنت فى « كاراجندا » •

* * *

الوصول الى « كاراجندا »

هذه هى « كاراجندا » ، مدينة يسكنها ربع مليون نسمة . مركز الصناعة الذى أقيم فى الخطة لخمسية الأولى ؟ محطة السكك الحديدية صغيرة ، مبنية بالخشب ، وقذرة ، وليست أكبر بكثير من المحطة فى « أوسكوروفكا » •

وعندما خرجت من المحطة ، رأيت شارعا ملتويا . قذرا . غير مرصوف ، ومنازل صغيرة آيلة للسقوط ؛ والجو رمادى قاتم . مملوء بغبار الفحم ، ولا يستطيع المرء أن يتنفس تنفسا عاديا فى هذا الجو • سرت فى الشارع كالمضروب من هول المفاجأة ، فمما لا شك فيه أنى رأيت فى موسكو فقرا . كذلك رأيت عددا من المدن الصناعية المتوسطة . أثناء اقامتى فى الاتحاد السوفييتى ؛ ولكنى لم أشاهد حتى اليوم مناظر مؤلمـة مثل ما رأيت فى هذه المدينة • وتذكرت — دون قصد — وصف الكاتب « جاك لندن » للمستعمرات الاحتياطية ، التى أقامها الباحثون عن الذهب ، فى ذلك العصر الذى انتشرت فيه حمى البحث عن الذهب بين سكان أوروبا ، ولكن لا وجه للمقارنة اطلاقا •

وبعد بضعة دقائق من مغادرتى المحطة اكتشفت كهوفا تحت الأرض (تستخدم للوقاية من البرد) مغطاة بورق الكرتون ، أو الخشب ، وبعضها كان سقفها قشرة أرضية لا يتجاوز سمكها نصف متر تقريبا ؛ وأقيمت هذه السقوف على أعمدة •

كان منظرا مرعبا ؛ حاولت تخفيف وقعه فى نفسى بأنه وضع طارىء ؛

يحدث فى كل مدينة تتطور صناعيا بسرعة ، ولا يمكن تجنب مثل هذه المظاهر ، وخصوصا أنه لا يمكن ازالتها فى هذا الوقت ، حيث الحرب دائرة .

ولم ألبث أن رأيت منظرا آخر : جمع كبير من الناس ، يبدو أنهم « منغوليون » ، وواضح تماما أنهم ليسوا « كازاخستانيين » . بدأت فى عدهم ، فتبين لى أن خمس سكان هذه المدينة من هذا الجنس ، وعلمت فيما بعد أن عددا كبيرا من الصينيين ، والكوريين يسكنون فى « كارجندا » مع الروسيين وال« كازاخستانيين » فقد رحلوا فى بداية الثلاثينات من هذا القرن من مناطق الحدود فى الشرق الأقصى الى « كاراجندا » .

وكلما رأيت مناطق أكثر فى هذه المدينة ، كلما ظهر لى عدم استطاعتى المقام بها ، فلا يوجد بها معاهد عليا ، ولا معاهد صناعية ، وليس بها سوى كهوف تحت الأرض ، ومنازل من الخشب آيلة للسقوط ، وبعض المنازل المقبولة نسبيا ، انتشرت هنا وهناك ، وتتخذها الادارات مقرا لها ، ولم يبد لى واضحا — فى يوم من الأيام اطلاقا — الفرق الشاسع بين أكواخ المواطنين ، التى يخيم عليها البؤس والحرمان ، وبين هذه المبانى الحكومية الجميلة ، المبنية من الحجارة ، والتى تتكون من عدة طوابق ، وضوحه فى هذا اليوم . ثم اكتشفت « أتوبيسا » جديدا ، سار بى عبر أحياء ، هى تجسيم للفقر والتعاسة . ذهبت الى السائق مسرعا وسألته : « الى أين نحن ذاهبون » ؟

فأجاب : « الى المدينة الجديدة » .

تركنا وراءنا آخر الكهوف ، وآخر المنازل الآيلة للسقوط بمسافة بعيدة ، ولم تظهر بعد « المدينة الجديدة » . وبعد نصف ساعة سفر تقريبا ، رأيت أنوارا كثيفة على مسافة بعيدة ، وعندما اقتربنا استمرت دهشتى فى الازدياد دون توقف ، فقد سرنا فى شوارع مرصوفة رصفا جيدا ، ومررنا على منتزه جميل ، ورأيت منازل جميلة ، يصل عدد طوابقها الى أربع أو خمسة طوابق .. وسألت السائق بحذر : « هل تستطيع أن تنصحنى ، كيف وأين يمكن أن أبيت هذه الليلة » ؟ ضحك وقال : « فى الفندق » .

نظرت اليه مندهشا ، اذ بعد كل ما قاسيته فى الأسابيع الأخيرة ، بدت لى « فندق » كلمة سحرية ، ثم أضاف قائلا :

« طبعا ! يوجد هنا فندق واحد ، فاذا كان معك تصريح ادارى ، سيقبلونك فورا » •

عندما دخلت الفندق ، اندهشت أكثر ، سجاجيد ، زهور ، أناس يرتدون ملابس نظيفة ذات قيمة ، حرية الناس فى الحركة هنا وهناك •

تقدمت الى موظف الاستعلامات بخطوات مترددة ، فسألنى :

— « هل معك تصريح ادارى » ؟

« نعم ! تفضل ! هاهو ذا » •

كنت مستعدا من قبل لسماع هذا السؤال • أطلعته على أوراق اللجنة المركزية لـ« رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة (M.O.P.R.) فى موسكو ، ومكتوب فيها : « ترجو اللجنة المركزية لـ (M.O.P.R.) رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة « مساعدة الرفيق « ليونهارد » ، وتذليل الصعوبات أمامه للوصول الى « ألما — أتا » مقر اقامته الجديد • ولم تكن أوراقا ادارية ذات أهمية ، فالـ« (M.O.P.R.) رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة « ليست من الأنظمة « القوية » ، وبالاضافة الى هذا ، « فكاراجندا » لا تقع على الطريق من موسكو الى « ألما — أتا » ، وعلى كل كانت أوراق رسمية • قال الموظف : « حسنا ! سندبر لك سريرا » •

لم أصدق أذنى : بعد أربعة أسابيع من الضياع والمآسى ، أستطيع أن أنام على سرير حقيقى ، فى فندق غخم !!! ولكن ينبغى أن يأتى المستقبل بأشياء أحسن مما مضى ، ثم أخبرت بعد دقائق ، أن أذهب الى صالة الطعام لتناول العشاء ، فشاهدت فى هذه الليلة مطعما أنيقا ، فيه فرقة موسيقية تعزف أنغاما جميلة للزوار ، وقائمة الطعام فيه مليئة بالأصناف المختلفة • وبدا وكأنهم يعيشون فى سلام تام ، وبدا التباين شاسعا بين الجو فى هذا الفندق ، وبين الأحياء القديمة فى « كاراجندا » والأكواخ المبنية من الطين ، للاقطاعيين المنفيين ، ولا يمكن لعقل تصور امكان وقوعـه ، لو لم يره فى الاتحاد السوفييتى •

جلس عدد من الناس بملابسهم الأنيقة فى المطعم ، ربما من الشخصيات البارزة فى الحزب ، أو من كبار الموظفين فى الدولة ، الذين يقومون هنا بمهمات رسمية • كانوا كلهم تقريبا رسميين • جلس اثنان فقط من « الكازاخستانيين » على احدى الموائد • كان الفندق وكذلك

المطعم مؤسسا ، كما لو كان فى مدينة روسية مفضلة بالخدمات من الجهات الرسمية •

لاحظت أول عادة من عادات « كازاخستان » ، اذ لا يشرب الشاى فى الفنجان ، بل فى كأس (يشبه السلطانية الصغيرة) بدون مقبض • ويسمونه (Pjala)ويمسك من تحت عند الشرب بأربعة أصابع • تعلمت هذه الطريقة بسرعة ، وسرعان ما تمكنت من استعمالها ، كما لو كنت « كازاخستانيا » يشرب الشاى •

قمت فى الصباح التالى بجولتى الأولى عبر « المدينة الجديدة » ، ولم تكن انطباعاتى مخيبة للأمل ، اذ تتكون كل المدينة من منازل جميلة حديثة من أربعة طوابق ، وفيها النور الكهربائى والمياه ، ولكن اطلاق اسم « المدينة الجديدة » عليها مبالغ فيه ، اذ لم تكن مدينة ، بل الأقرب أن تكون حيا جديدا ، امتدادا لمدينة ، فلا يحتاج المرء الا الى خمس عشرة دقيقة ليقطعها ماشيا من أولها الى آخرها •

يوجد فى وسطها ميدان كبير ، قام فى احدى جوانبه أكبر مبنى ، شيد ليكون مقرا للجنة الحزب الاقليمية فى هذه المنطقة •

اكتشفت فى جولتى الأولى ، أن بجانب مبنى الحزب الضخم سينما حديثة ، ومنزل لـ [illegible] وأمين الحزب ، ورئيس مجلس المدينة فى « كاراجندا » غير أنه كان صغيرا • ويبدو أن بقية المنازل كانت سكنية ، وفجأة وقفت أمام مبنى حديث مستطيل ، يتكون من طابقين ، وسرعان ما رأيت عليه لافتة مكتوب عليها « معهد كاراجندا للمعلمين » ، دلفت اليه مسرعا والفرح يملأ جوانبى ، وسرعان ما عثرت على السكرتارية • أطلعتهم على دفتر تسجيل المحاضرات (وهو دفتر رسمى ، يبين فيه العلوم التى درسها الطالب) التى حضرتها فى موسكو •

ــ « اذا أردت الدراسة هنا ، فتستطيع أن تبدأ من غد ، والمحاضرات تبدأ فى الساعة التاسعة صباحا ، ولكن لابد قبل هذا من اتخاذ بعض الاجراءات البسيطة ، اذ ينبغى أن يكون معك تصريح للاقامة فى هذه المدينة ••• » •

وعندها تغير لون وجهى لسماع هذه الجملة ــ فأنا أعلم المصاعب التى يلاقيها المرء لاستخراج أى أوراق رسمية ــ أسرعوا بادخال الطمأنينة فى قلبى بقولهم :

obeikandl.com

« سنكتب لك شهادة بأنك قبلت للدراسة هنا ، وسوف تقيم فى مسكن الطلبة التابع للمعهد ، وبمقتضاها ستحصل بالتأكيد على تصريح الاقامة » •

توجهت الى قسم الشرطة بخطوات ثابتة ، وقلب مطمئن ، الى أنه لا عقبة أمـام هذا الاجـراء • وكان فى قسـم الشرطة عـدد من الـ« كازاخستانيين » والمرحلين ، يبدو أنهم ينتظرون اتمام مثل هذا الاجراء : تصريح بالاقامة ، وشهادة تسجيل فى سجل القـاطنين فى المدينة •

وقيل لى ـ بعد انتظار عدة ساعات ـ : « يجب أن تحضر موافقة من رئاسة الحى فى « المدينة الجديدة » » •

ذهبت الى مقر رئاسة الحى ، وهناك أيضا رأيت عددا كبيرا من الناس ينتظرون ، وأخيرا جاء دورى ، ثم قيل لى : « للأسف ! لا نستطيع اعطائك الموافقة ، الا بعد موافقة مجلس المدينة » •

اذن •• الى مجلس المدينة : نظر الموظف فى مستنداتى الرسمية بامعان :

بطاقة بدون خاتم ترحيل ، ولكن مكتوب فيها « ألمـانى » ، وأوراق من اللجنة المركزية (M.O.P.R.) رابطة التنظيـم العالمى لحمايـة المناضلين من أجل الثورة ، ومن معهد موسكو للغات الأجنبية ، وتصديق من معهد « كاراجندا » للمعلمين ، بأننى قبلت للدراسة فيه • ثم قال :

« نعم •• ولكن من الضرورى أن يكون لدينا موافقة من لجنة الحزب المحلية » •

وبعد دقائق كنت أمام مبنى اللجنة المحلية للحزب فى « كاراجندا » وعلمت من البواب أنه ينبغى أن أتجه بأوراقى الى مكتب الدعاية والتثقيف السياسى ، لأنه المكتب المختص بمسائل (M.O.P.R.) رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة ، واللاجئين السياسيين •

تجرى الأمور هنا على نحو مختلف عما صادفته فى هذا اليوم فى قسم الشرطة وفى مجلس المدينة • أنصت الى باهتمام اثنان من العاملين فى أجهزة الحزب ولم يظهر العبوس على وجهيهما ، ربما لأن لديهما متسع من الوقت ، أو لأن لهما نفوذا أكثر ، وهموما أقل • سألونى عن أشياء كثيرة ، الى أن عرفوا كل شىء عنى : كيف جئت الى الاتحاد السوفييتى ! حياتى فى الأعوام التى عشتها فى بيت الأطفال رقم ٦ : دخولى منظمة

الشباب ، دراستى فى موسكو ، الظروف التى مرت بى أثناء الترحيل ، رغبتى فى الالتحاق بمعهد « كاراجندا » للمعلمين ، وأخيرا محاولة الحصول على تصريح اقامة فى « كاراجندا » .

— « لا تقلق ! فسنرتب كل الأمور » .

— « اذن أستطيع أن أحصل منكم الآن على الأوراق المطلوبة » ؟

— « ليس من الضرورى الحصول على ورقة مكتوبة ، فتستطيع أن تنتقل اليوم الى معهد المعلمين ، وتمر علينا غدا » .

وهكذا عرفت لأول مرة بعد اقامتى ست سنوات فى الاتحاد السوفييتى شيئا عن العلاقة بين أجهزة الحزب ، والادارات الحكومية . علمت أن كلمة من عضو الحزب ، تعقبها محادثة تليفونية ، لها قيمة أكثر من أربع أوراق رسمية صادرة من جهات حكومية .

كان عضو الحزب صادقا فيما قال ، فعندما عدت الى معهد المعلمين ، دعيت لمقابلة العميد ، فبادرنى قائلا :

« كل شىء على ما يرام ، لقد اتصل بى الرفيق من اللجنة المحلية للحزب » .

* * *

فى معهد المعلمين

حصلت على دفتر تسجيل المحاضرات ، وأوصلتنى السكرتيرة الى حجرات نوم الطلبة ، فأدركت من النظرة الأولى ، أن الوقت الجميل فى معهد المعلمين للغات الأجنبية الممتاز فى موسكو ، قد ذهب ولن يعود ، فهناك كان كل اثنين أو ثلاثة فى حجرة ، أما هنا فينام — حشرا — فى العنبر ٣٠ طالبا تقريبا ، ولا توجد دواليب ، بل يجب على كل طالب أن يضع حاجاته فى حقيبة أو فى كرتون تحت السرير عرضة للأتربة .

درسنا التاريخ من الكتب الرسمية الموضوعة لمعاهد المعلمين فى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى ، ويستطيع الطالب أن يحصل من مكتبة المعهد على ما يسمى بـ« محاضرات المعاهد العليا للحزب عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى » ، ففيها تفاصيل لما وضع موجزا فى الكتب الرسمية التى تدرس ، لم تنتشر هذه المحاضرات للبيع ، بل طبعت تحت عنوان « مطبوعات مخطوطة » ، وأرسلت الى معاهد معينة فى الاتحاد السوفييتى .

كان معظم الطلبة من أبناء وبنات الاقطاعيين السابقين الذين نفوا فى عامى ٣٠ — ١٩٣١ م الى « كاراجندا » • مضت اثنتا عشرة سنة على تجميعهم فى هذا المكان ، والآن لأنهم لم يعودوا اقطاعيين ، بل اعتبروا « تروتسكيين » ، يعنى الأعداء رقم واحد ، فقد سمح لأبنائهم بالالتحاق بهذه الدراسة •

استطعت فى اليوم الأول عقد صداقة مع بعض الطلبة ؛ كان معظمهم أطفالا ، عندما نفى آباؤهم الى هنا فى بداية الثلاثينات من هذا القرن ، وقاسوا الكثير فى طفولتهم • وعرفت من حديثى معهم ، كيف انتزعوا من منازلهم وأطيانهم ، وألقى بهم فى هذه البرارى • تركوهم هنا طعمة للجوع والبرد ، الى أن أقام الآباء بالاشتراك مع الأمهات أكواخا من الطين • وهكذا تأثرت نفسياتهم فى الأعوام الأولى من حياتهم بهذا العذاب الأليم • لم تكن الحياة سهلة فى الاتحاد السوفييتى فى بداية الثلاثينات بالنسبة لطفل ، أبوه كان صاحب أملاك شاسعة •

حدثنى أحد الطلبة حديثا صريحا عن الحياة فى السنين الأولى بعد نفيهم الى هذا المكان :

« غالبا ما كان يدخل أعضاء الحزب ممتطين الجياد فى المستعمرة ، وهى لم يكمل بناؤها بعد ، فاذا اقتصروا على الصياح فى وجوهنا بالسباب والسخرية ، كان الخطب هينا ، ولكنهم كانوا يحضرون أحيانا ، وفى أيديهم مقارع ، يضربون بها كل من يقابلهم فى الطريق ، حتى الأطفال ، كانوا يفاجئونهم وهم يلعبون ، ويضربونهم بالمقارع ، ثم أخذنا حذرنا ، فكنا دائما اذا رأينا شخصا غريبا قادما من جهة المدينة ، أسرعنا الى « المنازل » نختبىء فيها » •

حكى هذا دون أن يظهر على وجهه أى أثر للتأثر ، كما لو كان يحكى عن رعد ، انقشع عن المنطقة منذ وقت طويل • قال لى موضحا :

« لابد أن تفهم ! لقد كانت أيام كفاح مرير ، لتحويلنا من حياة خاصة نتمتع فيها بالملكية الخاصة ، الى حياة جماعية ، يسلب الانسان فيها كل شىء حتى حريته • وكان بعض أعضاء الحزب الصغار ، يتصرفون معنا تصرفات مشينة ، ولكن استنكرت هذه الأعمال من الحزب فيما بعد • يحدث مثل هذه الأعمال فى التحويل الاجبارى الى حياة جماعية ! » •

وافقته على هذا الرأى ، ولكنى فكرت بعد أقل من لحظة ، فى أن

من الأمور الغريبة . أن يحاول شاب سوفييتي تبرير عمل من ضربه بالمقرعة ، أو لطمه على وجهه ، بأن هذا أمر حتمته الظروف .

تكرر حديثنا عن الحياة فى المزارع الجماعية ، ولكن مع طلبة آخرين مروا بهذه الظروف العصيبة ، فلم أجد واحدا يرفض « مبدأ » الحياة الجماعية .

كان معظم الطلبة يذهبون فى آخر الأسبوع الى أسرهم ، بمعنى يعود الطالب الى احدى المستعمرات فى المناطق القريبة أو البعيدة حول « كاراجندا » حيث يقيم والده ، فاذا عادوا سمعت من كثير منهم شكاوى من الوالدين :

« لم يفهموا بعد ، لقد حاولت كثيرا أن أشرح لهم أن الحياة الجماعية ، هى الأسلوب الصحيح . ولكن الوالدين لن يدركوا هذا اطلاقا » .

أصبح أبناء وبنات الاقطاعيين السابقين — الذين نفوا فى طفولتهم مع آبائهم الى هنا — بمرور الوقت « ستالينيين » فمما لا شك فيه أن من الممكن أن بعضهم يظهر ولاءه وحبه لنظام « ستالين » رياء ونفاقا .

ولكن يبدو أن معظم هؤلاء الطلبة فكروا تفكيرا مشابها لتفكير أصدقائى — وتفكيرى — فى موسكو ، الذين قبض على آبائهم فى موجة « التطهير » التى حدثت من عام ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م :

كانت المصائب التى لحقت بالأسر الخاصة مفجعة ، وبالتأكيد دون جرم ارتكبه أفراد الأسرة ، ولكن « مبدئيا » يجب أن نوافق على قيام الاتحاد السوفييتى ، ومن أجل هذا يتحتم تبرير كل الاجراءات الاستثنائية التى اتخذت .

لم يكن طلبة المعهد من الـ« كازاخستانيين » ومن أبناء وبنات الاقطاعيين السابقين . بل كان بيننا أيضا عدد من أبناء وبنات كبار موظفى الدولة ، وشخصيات بارزة فى الحزب : ابن وكيل النيابة ، وبنت سكرتيرة الحزب فى المعهد ، وكلاهما أظهرا بوضوح صلفا وتعاليا ، اعتمادا على مركز الأب والأم فى الحزب والدولة . وقد كان مدرس التاريخ العام — وهو متين فى مادته — يتضايق من تصرفاتهما . سألت مرة أحد الطلبة :

— « ما الذى بين هذين الطالبين وبين هذا الأستاذ بالضبط » ؟

فقال هامسا :

— « مدرسنا مثل المنفى تقريبا » •

— منفى ؟

— « ليس منفيا حقيقة ، ولكنه فنلندى ، فأثناء الحرب الفنلندية السوفييتية التى وقعت فى عام ١٩٣٩ الى ١٩٤٠ م رحل كثير من الفنلنديين الى « لينينجراد » ورحل هو أيضا الى « كاراجندا » ووضعه الآن يحتم عليه أن يكون حريصا جدا » •

وبعد أيام قليلة تأكدت بنفسى أن الحياة هنا ليست سهلة بالنسبة المدرس الفنلندى • اذ بعد كل محاضرة يتحتم عليه أن يملى علينا أسماء المراجع التى نرجع اليها فى موضوعها ، ويقسم هذه المراجع بدقة الى مجموعتين :

١ — العصر الذهبى « للماركسية اللينينية » •

٢ — المراجع الأصليـــة •

فعل المحاضر هذا كعادته ، ولكن لم تكن مراجع المجموعة كافية لتوضيح الموضـــوع • فأضـــاف أثـــناء تلاوته لأســماء المراجع كتاب « بلاخانوف » ، وفجأة قوطع من ابن وكيل النيابة :

— « أيكون كتاب « بلاخانوف » من مجموعة العصر الذهبى « للماركسية اللينينية » أو من مجموعة المراجع الأصلية » ؟

احمر وجه المحاضر ، ثم تمالك أعصابه وقال :

« من الواضح أن كتاب « بلاخانوف » من مجموعة المراجع الأصلية ، وأنتهز هذه الفرصة لأؤكد لكم أن مجموعة العصر الذهبى للماركسية اللينينية هى فقط مؤلفـــات « ماركس و « أنجلز » ، و « لينين » ويتقدمها كلها مؤلفات الرفيق « ستالين » وقد ذكرت كتاب « بلاخانوف » فى هذه المحاضرات لأنه مفيد وهام فى هذا الموضوع ، وقد بين ذلك الرفيق « ستالين » فى خطابه الكبير الذى ألقاه فى ٦ نوفمبر سنة ١٩٤١ م » •

تنفسنا الصعداء ، فقد خلص المدرس نفسه من « المطب » بطريقة رائعة ، حتى لم يبق لابن وكيل النيابة شيئا سوى الايماء برأسه موافقا على هذا التوضيح ، لأن المحاضر ختم اجابته — بطريقة لبقة — بقراءة بعض جمل من خطاب « ستالين » •

ولكن كم من الصخور أزال هذا المدرس من طريقه ! ، وكم سيعترض طريقه فى المستقبل ! لاشك أنه ليس من السهل أن يشتغل مرحل مدرسا •

* * *

أنا أقابل « أولبريخت » فى « كاراجندا »

خرجت من قاعة المحاضرات فى ضحى أحد الأيام ، فتوجهت الى سكرتيرة المدير مرتبكة ، وقالت :

— « اتصل بنا قسم الشرطة من لحظات ، وطلبوا أن تذهب اليهم سريعا » •

الى قسم الشرطة ؟ شيء مزعج ! ولكن لا أذكر أنى اقترفت ذنبا • ذهبت الى هناك ، فقيل لى : « يجب أن تدخل على رئيس القسم شخصيا » •

نظر الى رئيس القسم — وهو رجل « كازاخستانى » — غاضبا مهددا :

« هل أنت الألمانى « ليونهارد » أنا أبلغك الآن بهذه الاشارة : « يجب أن تغادر « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة » •

وقفت كالمشلول ، ألم يستخرج تصريح اقامتى بعد موافقة لجنة المنطقة ؟ هل قرار الابعاد الذى صدر فى سبتمبر سنة ١٩٤١ م بالنسبة للقاطنين فى موسكو ، والمدن الكبرى الأخرى ، الواقعة فى مناطق الاتحاد السوفييتى الغربية ، سيطبق الآن على كل المدن فى الاتحاد السوفييتى ؟

— « الى أين أسافر ، اذا كان محتما على أن أغادر « كاراجندا » ؟ هل يجوز لى أن أسافر الى « ألمـا — أتا » ؟

— « يستوى الأمر عندى ، الى أى مكان تذهب • كل المدن مقفولة فى وجه الألمـانيين ، تستطيع أن تختار أى مكان فى منطقة « كاراجندا » ما عدا المدينة • سـافر الى مستعمرات « أوسكوروغكا » ، فهناك ألمـانيون كثيرون » •

— « أيها الرفيق القومندان ! أنا عضو فى منظمة الشباب منذ سنين عديدة ، وتحدثت هنا مع الرفقاء فى قسم الدعاية والتثقيف السياسى فى لجنة الحزب المحلية ، وأوصوا بالموافقة على تسجيلى هنا وقالوا لى : ان كل شيء سينظم » •

ازدادت علامات الغضب على وجه رئيس القسم وقال :

« أنا لا أعلم هذا ! ولكنى قلت لك ان قرار الابعاد سار على كل الألمـانيين ، فاذا لم تغادر المدينة فى ظرف ٢٤ ساعة ، فسوف ترتكب مخالفة قانونية ، وسوف تتحمل مسئولية ذلك • هل هذا واضح الآن » ؟

كان واضحا ••

أردت أن أقوم بآخر محاولة ، فذهبت مرة أخرى الى مقر اللجنة المحلية للحزب ، الى قسم الدعاية والتثقيف السياسى ، الى هؤلاء الرفقاء ، أعضاء الحزب الذين ساعدونى فى المرة الأولى ، وقلت لهم :

— « لقد أخبرنى رئيس قسم الشرطة ، أنه يجب على مغادرة « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة » •

ظهرت علامات الجد على وجه عضو الحزب :

— « نعم أيها الرفيق « ليونهارد » ! هذه أوامر من الجهات العليا ، ولا نستطيع أن نعمل شيا الآن » •

تبدلت الصورة التى أخذتها عن أعضاء الحزب فى الزيارة السابقة اذ ظهر لى الآن أنهم ليسوا على كل شىء قادرين •

— « لا تيأس أيها الرفيق « ليونهارد » ! ان من الممكن ، بل من المحتمل جدا ، أن يتخذ قرار فى وقت قريب بالنسبة لوضع الألمانيين اللاجئين سياسيا • ربما يستثنى اللاجئون من قرار الابعاد هذا • على كل اذا وجدت مسكنا ، فابعث الينا — من فضلك — عنوانك ، وسوف نخبرك بسرعة ، اذا ظهرت لنا أى فرصة ، ولكننا الآن — للأسف الشديد — لا نستطيع أن نفعل شيئا •

أصبح مؤكدا أنه يجب على مغادرة « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة ، — الآن أصبحوا ٢٣ ساعة — وترك معهدى الصغير « معهد المعلمين » ، وأصدقائى الذين تعرفت عليهم حديثا ، وزملائى فى الدراسة • لقد تعلمت : اذا لم يستطع عضو الحزب أن يعمل شيئا ، فمن العبث الالتجاء الى مكان آخر طلبا للمساعدة •

لن يسافر « الأتوبيس » الى المدينة الا فى المساء ، ولن يستغرق حزم أمتعتى القليلة وقتا طويلا ، اذن فعندى وقت فراغ طول اليوم •

سرت حزينا مكتئبا عبر شوارع « المدينة الجديدة » ، واقتربت من البيت التجارى الوحيد ، فرأيت خلف خوان عرض البضائع ، رجلا طويلا ، يرتدى حذاء من الفرو ، برقبة عالية تصل الى الركبة ، وقلنسوة من الفرو ، ومعطفا ثقيلا من الفرو أيضا • وبدا وكأنه باحث فى مناطق القطب • ثم سمعت صوتا لم يكن غريبا على ، وعندما اقتربت ، سمعت أن هذا الباحث فى مناطق القطب يتحدث الروسية بلكنة ألمانية •

وفى هذه اللحظة عرفته ، كان « هانز حالى » الذى تعرفت عليه أثناء

دورة دراسية فى موسكو فى نوفمبر سنة ١٩٤٠ م ، وتحدث فى تليفزيون موسكو بعد بدء الحرب مرات عديدة • اندفعت اليه :

— « هانز » ! هذا رائع ! كيف جئت الى هنا » ؟

سر بلقائى أيضا ، ولكنه راوغ فى الاجابة على سؤالى :

— « نحن على سفر مع مجموعة من الرفقاء ، وتوقفنا فى هذه المدينة لبعض الوقت ، وسوف نمكث هنا أياما ، فى هذه المنطقة • وأنت ؟ أخبرنى ! ماذا تعمل هنا » ؟

— لقد سافرت مع المرحلين فى ٢٨ سبتمبر ، فوصلنا فى منتصف أكتوبر الى « أوسكوروفكا » على بعد ١٢٠ كيلو متر من « كاراجندا » ، فوزعنا جميعا على المزارع الموجودة فى المنطقة ، ولكن لم يكن فى بطاقتى خاتم الترحيل الاجبارى ، فجئت الى هنا ، وأدرس الآن فى «معهد المعلمين » •

— « اذن •• فالأمور تسير عندك على ما يرام » ؟

— « للأسف لا يا « هانز » ! حدث شىء مزعج اليوم بالذات ، فقد استدعيت الى قسم الشرطة ، وهناك أخبرت بأننى لابد أن أغادر « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة ، والآن ، لا أعلم اطلاقا ، ماذا أفعل » !

— « حسنا ! فقد وصلنا فى الوقت المناسب ! ان من الأحسن أن تأتى معى الآن ، سوف أقدمك الى الرفيق « ألبريخت » والرفقاء الآخرين » •

— « أولبريخت » فى « كاراجندا » ماذا يعمل « أولبريخت » فى « كاراجندا » فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ، لا ينبغى أن أسأل ، فقد عشت فى الاتحاد السوفييتى وقتا طويلا ، وهو وقت كاف لأعلم أنه لا يجوز للمرء أن يسأل عن أمور الحزب ، وينتظر حتى تبلغ اليه •

وبعد دقائق قليلة وصلنا الى الفندق ، وهو الفندق الوحيد فى المدينة ، الذى قضيت فيه أول ليلة فى « كاراجندا » ، كان يقف أمامه ٥ أو ٦ أشخاص ، وكانوا كلهم يرتدون ملابس مثل « هانز مالى » •

لم أعرف أحدا منهم آنذاك معرفة شخصية ، لم يكن معروفا لدى سوى وجه « أولبريخت » عن طريق المحاضرات الثقافية فى موسكو • التى امتدت من خريف عام ١٩٤٠ م حتى يونيو عام ١٩٤١ م •

قادنى « هانز مالى » الى « أولبريخت » فسلم على بعدم اكتراث ، وتمتم بكلمات لم أفهمها ، ربما كانت « نهارك سعيد » هكذا حدث ،

كما لو كان من الأمور المسلم بها فى العالم أن يلتقى اللاجئون سياسيا من الألمانيين ، يتقابلون فى « كاراجندا » فى ديسمبر سنة ١٩٤١ • ثم قدمت الى احدى الرفيقات اسمها « لوتى كونى » • سمعت الاسم آنذاك لأول مرة ولم أعلم الا بعد أربع سنوات أنها زوجة « أولبريخت » • ظللنا واقفين أمام الفندق ، وفى أثناء ذلك وقفت عربتا جيب أمريكية الصنع • يبدو أن أعضاء الحزب عازمون على السفر فى مدى دقائق •

سألوا بعض الأسئلة عن اللاجئين الذين رحلوا الى هذه المناطق المجاورة لـ« كاراجندا » فشرحت لهم باختصار — بأسلوب تلغرافى — أحوال الذين أعرفهم من الرفقاء ، وعن المأساة التى يعيشون فيها ، ولكن أعضاء الحزب كانوا ينصتون الى بعدم اكتراث ولم يستفسروا عن شىء •

ظهرت مأساة الرفقاء الألمانيين الذين رحلوا ، لهؤلاء الذين كانوا زعماء بارزين فى الحزب الشيوعى الألمانى مسألة غير ذات أهمية ، ويبدو أنهم — هكذا فهمت — لم يجيئوا الى هنا بسبب مسألة اللاجئين السياسيين •

— « وأنت ؟ تسكن فى « كاراجندا ».؟

— « نعم ! ولكن هذا آخر يوم لى فيها •• أنا أدرس فى قسم التاريخ بمعهد المعلمين ولكنى تلقيت اليوم أمرا صارما بمغادرة « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة » •

أشار « أولبريخت » بيده اشارة توحى بأن ذلك لن يكون ، ثم قال : « ستنتظم الأمور ، فسوف نجتمع فى غضون الأيام التالية مع أعضاء الحزب فى اللجنة المحلية ، وأنت مدعو لحضور هذا الاجتماع معنا » •

وفى هذه الأثناء كانت سيارة الجيب قد استعدت للانطلاق ، وركب فيها الرفقاء •

استدعيت ظهر ذلك اليوم للذهاب الى مقر الحزب ، ضحك مسئول قسم الدعاية والتثقيف السياسى وقال :

— « كل شىء على ما يرام ، فتستطيع البقاء فى « كاراجندا » ، وسوف يكون هنا فى غضون الأيام التالية ، مؤتمر فى مقر الحزب لكل اللاجئين السياسيين ، الذين يقيمون فى منطقة « كاراجندا » ولما كنت مقيما فى المدينة نفسها ، وتدرس هنا فتستطيع أن تحضر هذا المؤتمر ، وسوف نتحدث على كل شىء فى الاجتماع •

— « هل يمكن أن أسأل عن موعد عقد هذا المؤتمر بالضبط » ؟
— « مقرر له حتى الآن يوم ٢٢ ديسمبر ، بعد ما يعود الرفيق « أولبريخت » مع الرفقاء الآخرين من زيارتهم معسكر أسرى الحرب » •

معسكر أسرى الحرب ؟ أسمع هذا لأول مرة ؛ ولهذا جاء وزملاؤه الى هنا • لم يكن عندى أى فكرة عن وجود معسكر أسرى بالقرب من « كاراجندا » • ولم أسمع أيضا — أثناء اقامتى هناك مدة عشرة أشهر بعد هذا التاريخ — شيئا عن هذا المعسكر ، ولا عن عدد من فيه من الأسرى •

ليست هذه الواقعة من الأمور الغريبة ، اذ يحدث فى الاتحاد السوفييتى ، أن الناس الذين يعيشون فى مدينة ، عشرات السنين ، لا يحسون بالمؤسسات التى تقام داخل المدينة ، أو فى المنطقة المحيطة بها ، فضلا عن التكتم على وجود معسكر ، أو معسكر للأسرى •

* * *

مؤتمر اللاجئين

بدأ مؤتمر اللاجئين السياسيين الألمانيين فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤١ فى مقر الحزب فى « كاراجندا » • كانت هناك لقاءات وسلامات ، وعلت الابتسامة على الوجوه تعبيرا عن فرحة اللقاء مرة أخرى • قابلت الثلاثة الذين اشتركوا فى الحرب الأسبانية ، وكانوا زملائى فى عربة البضاعة أثناء الرحلة من موسكو ، وقابلت أيضا صديقتى « ارمجراد سيكيرت » ، وابنتى الكاتب الألمانى « ألبرت هوتو » الذى اعتقل بعد بدء الحرب بوقت قصير ، ولاجئين آخرين ممن كانوا معى فى القطار ، ويقيمون الآن فى منطقة « أوسكورفكا » ولكنى سررت جدا بلقاء أصدقاء ترجع صداقتهم الى الأعوام التى كنت مقيما فيها فى « بيت الأطفال » رقم ٦ ؛ لأنى لم أرهم منذ زمن بعيد • وهم يقيمون هنا منذ مدة طويلة ، لأنهم كانوا ضمن أول مجموعة رحلت من موسكو •

ازداد عددنا شيئا فشيئا ، حتى بلغ خمسين لاجئا سياسيا ألمانيا فى صالة مقر اللجنة المحلية للحزب ، ثم دعينا للدخول الى قاعة الاجتماع •

كان جوا يثير الانتباه : امتلأت القاعة الجميلة بأثاثها الفخم — التى لم يدخلها سوى الروسيين و « الكازاخستانيين » ذوى الملابس الأنيقة الغالية الثمن — لأول مرة فى تاريخ الحزب فى « كاراجندا » بألمانيين فقط ، وكان مفجعا أن يرى المرء ، كيف غيرت المأساة وجوه

اللاجئين الألمـــانيين ، إذ لم يمض أسبوعان على اقامتهم فى « كاراجندا » حتى ظهرت علامات البؤس . والفقر والحزن على وجوههم . لم نتأثر نحن الشباب بهذا كثيرا ، ولكن كبار السن عانوا من الترحيل الاجبارى ، ومن الجوع ، ومن الظروف القاسية التى يعيشون فيها فى « كاراجندا » فظهر ذلك واضحا على وجوههم .

فلو فرض أن رآهم واحد خلى الذهن من هذه الأحداث ، ما صدق أن الجالسين فى هذه الصالة ألمـــانيون . أصبح الجو باردا فى « كاراجندا » فوصلت درجة الحرارة الى ٤٠ درجة تحت الصفر ، ولم يتميز اللاجئون عن المنفيين من الروسيين ، ارتدوا على أجسامهم ملابس غير ملائمة ، لبسوا أعدادا منها ، قطعة فوق الأخرى ، ويبدو أنهم لبسوا كل ما لديهم من ملابس . لم نكن نتصور أن الجو سينقلب فى غضون أسابيع قليلة ، ويصبح شديد البرودة بهذا الشكل .

ثم دخل القاعة زعماء الحزب فى « كاراجندا » المسئولون عن مكتب الدعاية والتثقيف السياسى ، ومعهم « فالتر أولبريخت » .

وافتتح المؤتمر ، فبدأ أحد زعماء اللجنة المحليـــة للحـــزب فى « كاراجندا » يلقى كلمة الافتتاح باللغة الروسية :

« دعت اللجنة المحلية للحزب فى « كاراجندا » اللاجئين الألمانيين ـ الرفقاء اللاجئين سياسيا ، هكذا قال بالحرف الواحد ـ الى الاجتماع للتباحث معهم حول بعض المسائل السياسية ، وأمور أخرى ، ويسرنى أن يكون بيننا اليوم الرفيق « أولبريخت » وأعطيه الكلمة ليحدثنا عن المسائل السياسية » .

توجه « أولبريخت » الى منصة الالقاء ، هادئا ، واثقا من نفسه مباشرة كما لو لم يحدث فى الشهور الأخيرة شىء ذو أهمية . وسرح فكرى ـــ دون قصد ـــ الى المرة السابقة ، عندما سمعته فى ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ فى موسكو ، يوم أن ألقى محاضرة فى دورتنا الثقافية ، التى أقيمت آنذاك ، لم يمض على هذا سوى ستة أشهر فقط ، ولكن ، كم من الأحداث وقعت فى هذه المدة ! غزت القوات الألمانية « ايستلاند » و « ليتلاند » وروسيا البيضاء ، وأخضعت بسرعة عجيبة الجزء الأكبر من « أوكرانيا » وحاصرت « لينينجراد » ، والتفت حول موسكو من ثلاث جهات تقريبا . وهجر(١) ملايين من الناس ، جميع السكان الألمانيين

(١) بضم الهاء وكسر الجيم مع التشديد .

فى جمهورية « فولجا » ، وكل الألمانيين فى الاتحاد السوفييتى • والآن ! وبعد ستة أشهر من بدء الحرب ، يتقابل الألمـانيون اللاجئون سياسيا فى « كاراجندا » •

لم يقل « أولبريخت » فى كلمته شيئا جديدا ، واقتصر فى معظمها على ترديد ما يقرأ فى الصحافة السوفييتية يوميا • واظهارا لاخلاصه للنظام الحاكم آنذاك ، بين فى كلمته أن الوضع الاقتصادى السىء فى ألمـانيا ، والنقص فى المواد الخام ، وخاصة مواد الوقود ، سوف يرغم ألمـانيا على الانسحاب ، وتحدث عن ازدياد عمليات المقاومة فى البلاد التى احتلتها القوات الألمـانية ، وعن انتشار السخط والتذمر فى ألمـانيا نفسها ، وأخيرا أشار الى أن الموقف انقلب نسبيا ضد هتلر بعد هجوم اليابان على ميناء « اللؤلؤ » ودخول أمريكا الحرب ضد قوى المحور — ولكن كنا نعرف هذا أيضا من الصحافة السوفييتية •

وفى آخر كلمته ، قال لنا شيئا لم نكن نعلم به قبلا : تحدث عن العمل فى معسكرات أسرى الحرب ، الذى بدأ فى الأسابيع الأخيرة فقال : « هذا العمل يهدف الى تحويل الأسرى — مستقبلا — فكريـا ليصبحوا ضد الفاشية » ، ثم أخرج بعض الأوراق من حقيبته ، وصاح بأعلى صوته : « هذا نداء ١٥٨ أسيرا ألمـانيا » • ثم قرأ بعض الفقرات ، وصفها بأنها وثائق هامة ، ذات دلالة على التغيير • وشرح جمل النداء جملة جملة •

أنهى « أولبريخت » كلمته ، فصفق الحاضرون كما هو متبع ، ولكن أمكن للمرء أن يتبين أن كثيرا من الحاضرين لم يتابعوا كل ما قاله « أولبريخت » ، كانوا بسبب الارهاق الشديد ، والجوع ، والضعف غير قادرين على متابعة خطبة سياسية ، مثل ما كانوا يفعلون فى الأيام العـادية •

ثم أعلن فى النهاية أننا سنناقش مشاكل الأحوال المعيشية للاجئين المقيمين فى منطقة « كاراجندا » ، بعد أن نتناول معا طعام الغداء •

اللقاء ، ومحاضرة « أولبريخت » وقبل هذا ، الأمل فى أن تحل بعض المشاكل عمليا فى المناقشة التى ستدور بعد الغداء — كل هذا رفع من معنويات هؤلاء البؤساء فى حياتهم ، فى تلك المنطقة •

دعينا الى مائدة شهية ، حافلة بألوان الطعام ، أعدت المـائدة بجوارنا ، ووضع الطعام على مقربة من بطوننا ، التى تصيح من ألم الجوع •

كيف تحول الجو بسرعة ؟ لا أدرى ! اذ سرعان ما نسى هؤلاء — وهم على مائدة الطعام — المأساة الفظيعة التى مروا بها فى الأسابيع الأخيرة من جوع ، وبرد ، واهانة ؛ وبدأوا يتذكرون حياتهم فى موسكو ، أو يتحدثون عن مناظر مضحكة قابلتهم أثناء رحلتهم • لا يمكن أن يصدق أحد ؛ بأن هؤلاء الناس الذين تبدو عليهم الآن علامات السرور والفرح ؛ جاءوا قبل بضع ساعات الى مقر الحزب ، منحنية ظهورهم ، منكسة رؤوسهم من هول ما يلاقونه ، ذليلة نفوسهم من وطأة المأساة التى يعيشونها •

انتظرنا جلسة بعد الغداء بأعصاب مشدودة ، تلك الجلسة التى — كما كنا نأمل — ستغير حياتنا فى « كاراجند » •

بدأ « فالتر أولبريخت » ومعه إثنان من زعماء مكتب الدعاية والتثقيف السياسى — اللذين كانا مرحين بشكل ملحوظ ، ولكن كما تأكدت ليس لهما نفوذ كبير — والسكرتيرة المحلية لـ (M.O.P.R.). « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ، بدأوا معنا مناقشة المشاكل العملية فى حياتنا الراهنة •

أشار أحد المسئولين فى المكتب السياسى فى كلمة افتتاحية قصيرة الى الوضع العام الذى يقاسى منه الشعب السوفييتى ، والى المصاعب الضخمة ؛ والضروريات ، التى تحتم التضحية فى هذا الوقت ، والى أنه ينبغى علينا تحمل الحياة القاسية بصبر وثبات • وعلى الرغم من أن المصاعب ضخمة جدا ، والوسائل محدودة — هكذا بين فى كلمته — سوف تقوم اللجنة المحلية للحزب فى هذه الأيام الحالكة ، بعمل ما فى وسعها ، لتخفف من شدة قسوة الحياة بين الألمانيين اللاجئين سياسيا • ومن المستحسن أن يكون هناك اتصال دائم بين اللاجئين السياسيين وبين اللجنة المحلية لـ« رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ؛ ومن المؤكد أن الرابطة سوف تقدم المساعدات لهم كلما أمكن ذلك •

وضح لى من كلام عضو الحزب ، أنه يتألم شخصيا من وضعنا السىء ، ولكن ليس له من النفوذ ما يمكنه من أن يغير كثيرا من هذا الوضع ؛ فاشارته الى « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » — وهى كما أعلم منظمة ليس لها نفوذ كبير — بينت ذلك بما لا يدع مجالا للشك • لم يكن التركيز على ما يقاسيه

الشعب السوفييتي فى هذا المجال لازما : اذ لم يفكر أحد من اللاجئين فى أن يطالب بأشياء يصعب تحقيقها فكلنا يعلم جيدا ، مدى الصعوبات التى يمر بها الشعب السوفييتى فى هذا الوقت ، ولهذا لم يخطر ببال أحد أن يرفع شكوى لتحقيق شىء أكثر من الأمور الضرورية ، المتواضعة جـــدا •

ثم طلب من الرفقاء واحدا بعد الآخر ، ذكر الاســم والعنوان السابق ، ومحل العمل ، وأن يشرح متاعبه باختصار ، ويبدى رغباته •

لاحظت الآن لأول مرة مدى حسن أحوالى على ما فيها ، وكيف أنقذت من الوقوع فى مثل هذه المشاكل ! كان وصف الرفقاء ، تشيب من هوله الرؤوس ، لقد أذلهم رؤساء المزارع الجماعيـــة ، وقواد جنود الحراسة ، وسخروا منهم بالسب ، واللعن ، والشتم ، لأنهم ألمـــانيون ، وكانوا ينادونهم بكلمات القذف المفضوح ، وتعرضوا أحيـــانا للاهانة بالضرب • ووضعوا عمدا فى كثير من الحالات فى مرتبة معيشية دانية • وعندما حاولوا رفع شكواهم معبرين عن سوء أحوالهم المعيشية قيل لهم : « لا يوجد شىء لكم أيها الألمـــانيون ! ولتكونوا مسرورين ، اذا حصلتم على أى شىء تأكلونه » •

وأرسل بعض اللاجئين الألمـــانيين الى بيوت ، فى سقوفها فتحات ، وفى حوائطها شقوق ، وتركوا نهبا للريح ، الذى يجمد الأطراف دون حماية من هذا الجو المهلك •

وصفوا أحوالهم بواقعية ، دون حنق أو ضغينة ، كان مذهلا ! كيف تحمل اللاجئون هذه الآلام ، وكيف صبروا هادئين على هذه المآسى !

كذلك كانت رغباتهم متواضعة ، طالب معظمهم فقط برفع هذا الظلم الفادح ، عن طريق مكالمة تليفونية ، أو خطاب صغير من اللجنة المحلية للحزب •

وقدمت الاستعطافات من هنا وهناك فى طلب بعض الملابس ، أو الأغطية أو قطع الصابون ، أو مواد غذائية ، فلقد كنا نحصل آنذاك — باستثناء عدد قليل كان ينجز بعض الأعمال الخاصة — على ٣٠٠ جرام خبز مبلول يوميا ، أما اذا كان الخبز ناشفا فيتراوح وزنه بين ٢٠٠ و ٣٠٠ جرام ، ولا شىء خلاف هذا ، فلم نأخذ دسما ، ولا سكرا ، ولا لحما •

فبينما المواطنون الســـوفييت الذين كانوا على اتصـــال بالريف

يلجأون الى أصدقائهم وأقاربهم للحصول على مواد غذائية ؛ كنا نحن اللاجئين الألمــانيين ــ الذين انتقلوا الى جو غريب عنهم كلية ــ نقاسى من المصاعب بصورة مزعجة •

كانت هذه المطالب ضرورية بشكل خاص بالنسبة للمسنين والمرضى ؛ وكذلك للمحاربين القدامى ؛ الذين اشتركوا فى الحرب الأسبانية ، ويمكن تحقيقها رغم الظروف الصعبة • فليس عضو الحزب هو الذى يعلم فقط ــ بل كل واحد منا أيضا ــ أنه يوجد فى كل مكان فى منطقة « كاراجندا » ــ كما هو فى كل مكان فى الاتحاد السوفييتى ــ محلات ، ومطاعم ، وموزعون وراء الكواليس ؛ تعطى بضائعها لطبقة معينة ، وكل واحد يعلم أن فى هذه المحلات والمطاعم بضائع وأغذيــة مكدســة فى هذا الوقت العصيب على ســكان الاتحــاد السوفييتى ومن المؤكــد أن بامكان « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » الحصول على كمية من هذه الأغذية ؛ لتسد رمق أولئك الرفقاء ، الذين خدموا الدولة عشرات السنين ، وأولئك الذين وضعوا حياتهم على أكفهم فى الحرب الأسبانية • ولكن لم يذكر أحد شيئا عن هذه المحلات المتوارية خلف الكواليس ؛ أغفلت ، وكأنه لا يوجد هذا النوع من التجارة السوداء على الاطلاق ، ولأن الأمر يتعلق بشىء « لا يجوز الحديث عنه » ، وخاصة اذا كان هذا الشىء يمس الجهة الرسمية ؛ ويغضبها ذكره ؛ فلم يتكلم أحد من اللاجئين ؛ ولم يشر اليه مجرد اشارة ، وأسدوا عليه ستارا كثيفا •

أجيب على الرغبات المادية المتواضعة ؛ والتوسلات لتحقيق طلبات المساعدة بأن « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ستتولى القيام بهذا كله فى حدود الامكانيات •

كان كل واحد منا يعلم أن المسألة انتهت بهذا الوعد ؛ لأنه كان واضحا أن تنظيما ضعيف النفوذ مثل « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » لا يمكنه توفير الغذاء والملابس فى مثل هذه الظروف •

وكلما طالت المناقشة ؛ ازداد الأمر وضوحا بأن حالة اللاجئين السياسيين لن يتغير فيها شىء اطلاقا •

ومما لا شك فيه ؛ أن هذا لم يكن ذنب عضوى الحزب اللذين يتحملان قيادة أنظمته فى هذه المنطقة ؛ فقد أبديا الرغبة فى المساعدة

فى دائرة نفوذهم ، ولكنهما لا يملكان هذا الأمر فى أيديهما ، لأن نفوذهما محـــدود .

وجاء دورى فى آخر القائمة — ربما لأنى أصغرهم — ، فعبرت عما أطلبه فى جملتين : أن أستمر فى دراستى فى المعهد ، ويسمح لى بالاقامة فى « كاراجندا » .

وتحقق لى هذان المطلبان ، اذ قال أحد العضوين :

« هذا ممكن عمله ، فتستطيع أن تذهب فى غضون الأيام التالية الى قسم الشرطة ، وسيعطوك تصريح الاقامة ، لتستمر فى دراستك فى المعهد » .

انتهى مؤتمر اللاجئين بعد القاء كلمة ختام قصيرة ، وأصبح واضحا لدى الجميع ، أنهم سيقضون وقتا ليس بالقصير ، فى منطقة « كاراجندا » وأن وضعهم الحالى ، ليس نتيجة اجراءات خاطئة ، اتخذتها لجنة الحزب المحلية ، بل « الخط الرسمى » الصادر من الجهات العليا ، ولكن سوف يتجنب مستقبلا المبالغة فى تنفيذ الاجراءات .

وتبخرت الآمال التى دارت بأفكار كثيرين فى بداية اللقاء ، ولكننا — كلنا — عشنا فى الاتحاد السوفييتى وقتا يكفى لأن ندرك أنه لا مجال للشكوى ، وأنه لابد أن نتعود على كل الظروف ، وألا ننتظر رؤية أى شىء ايجابى فى تلك الظروف القاسية المؤلمة . واعتقد بعضنا « أنه سيكون بيننا وبين الحزب اتصال » ، « ولا شك فى تكرير مثل هذا اللقاء » .

ولم يحدث هذا ، فقد كان مؤتمر ديسمبر هو اللقاء الوحيد الذى نظم للاجتماع باللاجئين السياسيين الذين نفوا الى منطقة « كاراجندا » .

لم أر فيما بعد واحدا من اللاجئين السياسيين ، الذين حضروا هذا الاجتماع الذى عقد فى ديسمبر سنة ١٩٤١ م فى « كاراجندا » ما عدا « ارمجارد سيكيرت » التى عادت الى ألمـانيا فى عام ١٩٤٧ ، واشتغلت فى اذاعة ألمـانيا الشرقية ثم فى وزارة الخارجية فى حكومة المنطقة السوفييتية (١) .

ومن الممكن ، بل من المحتمل جدا ، أن هؤلاء الرفقاء الذين خدموا

---

(١) يعنى المؤلف ما يعرف باسم ألمـانيا الديمقراطية ، فالغربيون يسمونها بهذا الاسم ، لأنهم لا يعترفون بها كدولة ، وانما منطقة يحتلها السوفييت .

الحزب عشرات السنين ، لا يزالون يقيمون فى منطقة « كاراجندا » ، اذا لم يكونوا قد هلكوا من الهم ، والفقر .

لم تذكر الجهات الرسمية فى المنطقة الألمانية المحتلة من الاتحاد السوفييتى شيئا بعد عام ١٩٤٥ عن اللاجئين السياسيين فى الاتحاد السوفييتى ، والمرة الوحيدة التى جاء فيها ذكر شىء عن هؤلاء اللاجئين يوم أن نشرت صحيفة « ألمانيا الجديدة » الناطقة بلسان « الاتحاد الاشتراكى الألمانى » نبأ عن وفاة الفنان الألمانى « هاينريش فوجيلر » وجاء فى هذا الخبر : أنه توفى فى عام ١٩٤٢ م فى « كازاخستان » حيث أجلى — رحل — عن موسكو احتياطيا .

من رحل اجباريا معه ، وأقام فى منطقة « كاراجندا » ؟ يعلم هذا فقط أولئك الذين رتبوا ونفذوا هذا « الاجلاء الاحتياطى » .

* * *

حياتى فى « المدينة الجديدة »

بدأت حياتى العادية فى « كراجندا » عقب انتهاء المؤتمر ، فقد كان نقطة انطلاق طيبة بالنسبة لى . وعلى الرغم من أنه لم ينشر شىء عن هذا المؤتمر فى الصحافة ، حتى ولا فى الصحيفة المحلية « كاراجندا الاشتراكية » ، فلم يقتصر الخبر على كبار أعضاء الحزب فى اللجنة المحلية ، بل علم به أيضا المدرسون فى معهد المعلمين .

أحدث هذا عندى شعورا بالارتياح النفسى ، ففى اليوم التالى لمؤتمر اللاجئين وجهت الى أسئلة من المدير ، ومن سكرتير الحزب ، ومن بعض المدرسين ، عما اذا كان المعهد قد أعجبنى ! وعما اذا كنت مسرورا بالدروس ! وعما اذا كان عندى اقتراحات يجب الأخذ بها !

ثم قبلت بعد هذا مباشرة عضوا فى منظمة الشباب المحلية ، دون أدنى صعوبة ، ثم عينت سكرتيرا مسئولا لـ« رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » وفى احدى الاجتماعات العادية انتخبت عضوا فى مجلس رئاسة المعهد .

أصبح التغيير المفاجىء فى وضعى أكثر وضوحا فى الأيام التالية :

ذهبت بعد أيام قليلة من عقد المؤتمر للتجول فى « المدينة الجديدة » وأثناء سيرى فى الشارع ، سمعت ورائى وقع أقدام خيول ، تجر عربة ، وتسير ببطء ، فنظرت اليها ، وفجأة رأيت يدا تلوح لى بحرارة محيية .

تحية مفزعة ، لقد كان رئيس قسم الشرطة ، هو بنفسه الذى أصدر أمرا بطردى من « كاراجندا » قبل بضعة أيام •

« اذا لم تغادر « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة فستكون ••••• هل هذا واضح الآن » ؟؟

لا زالت هذه الكلمات ترن فى أذنى ! ماذا أفعل الآن ؟ هل أسرع فى الهرب من أمامه ؟ لا فائدة من هذا ! فلا يفيد الهرب من أمام رئيس قسم الشرطة شيئا !

وهكذا ظللت واقفا بكل بساطة ، وأنا أرتعد داخليا من الخوف ، ماذا يحدث الآن ! وفى غضون ذلك كانت العربة قد اقتربت منى جدا ، فأوشكت أعصابى على التحطم من شدة التوتر ، وقفت العربة ، ونزل منها رئيس قسم الشرطة ، واتجه الى مبتسما ، وقال :

— « أيها الرفيق « ليونهارد » هل أعجبتك الحياة هنا فى « كاراجندا »؟ أنا أتمنى من كل قلبى ، أن تشعر بالهدوء والراحة فى « المدينة الجديدة » •

توقفت الكلمات فى حلقى ! قبل بضعة أيام صاح فى وجهى ، أصدر أمرا بطردى ، واليوم يسألنى عما اذا كنت أشعر بالارتياح هنا !

— « تعجبنى جدا الحياة هنا فى « كاراجندا » وأشعر بالراحة والطمأنينة » •

— « هذا يسرنى جدا » •

— « لو سمحت ! هل من الممكن أن أحضر الى سيادتكم فى غضون الأيام التالية لانهاء اجراءات تصريح الاقامة » ؟

— « لا ! أيها الرفيق « ليونهارد » . اذ ليس من الضرورى أن تتجشم المصاعب للحضور الينا بخصوص هذا الموضوع ، سأرسل لك التصريح الى المعهد غدا مع أحد السعاة » •

وتخطيت أصعب عقبة فى غضون وقت قصير • وجهت الى دعوات للاشتراك فى المناسبات المختلفة ، وقوبلت بالاحترام ، وكان حظى آنذاك نادرا بالنسبة لألمــانى ، اذ لم أعامل كـ« أجنبى عدو » • وكانت حالتى فى الحقيقة من الأحوال الشاذة ، فلم يعقد فى المدن والمناطق الأخرى مثل هذا المؤتمر ، وبناء عليه فقد قاسى كثير من الألمــانيين اللاجئين سياسيا فى وقت الحرب ، ليس فقط ماديا ، بل نفسيا أيضا ، ولم يستفيدوا شيئا كثيرا ، عندما كانوا يبينون أنهم ألمــانيون شيوعيون ،

obeikandl.com

كافحوا فى عهد الجمهورية « الفايرية » ضد النازيـــة ، وخاطروا بحياتهم فى هذه المقاومة أو فيما بعد فى الحرب الأسبانية •

ورغم هذا فلم يكن من النادر اذلالهم بالسباب لأنهم ألمــانيون ، والسخرية بهم ، والقاء اللوم عليهم فيما يفعله « هتلر » رغم أنهم قاوموا النازية طول حيتهم •

وذات يوم تلقيت دعوة لسماع محاضرة يوم الأحد فى الساعة العاشرة صباحا لمجموعة خاصة فى مقر اللجنة المحلية للحزب •

كان هذا حدثا جديدا بالنسبة لى • فأحيانا كنت ألاحظ أثناء حديثى مع أعضاء الحزب الروسيين ، أن بعضهم يعلم أشياء أكثر مما نقرأه فى الصحف والجرائد السوفييتية ، ولكن لم يكن واضحا لى ، من أين هذه المعلومات !

والآن ! أعتقد أن هذا اللغز قد حل ، فلابد أن فى المدن الأخرى مثل ما فى « كاراجندا » • بجانب الاجتماعات الرســمية العادية ــ فى « كاراجندا » كما فى كل مكان فى الاتحاد السوفييتى ــ حيث يعاد القاء ما تنشره الصحافة ، تلقى كل يوم أحد محاضرة هــامة ، ودسمة فى معلوماتها ، فى مقر اللجنة المحلية للحزب ، ويدعى لها أفراد ، يختارون اختيارا دقيقا •

يتلقى المدعو خطاب دعوة ، ليبرزه عند الدخول ، فالتفتيش دقيق جدا ، حتى لا يتسرب الى القاعة ، غير المرغوب فيهم •

كان يحضر هذا الاجتماع بصفة مستمرة ٨٠ من الأعضاء المهمين الذين تثقفوا سياسيا فى هذه المدينة • وكان مستوى المحاضرات رفيعا ، فلم يوجد مكان للمحاضرات الهزيلة ، ولم يكن من النادر تناول المشاكل العالمية ، حتى ولو كان مسرح أحداثها بعيدا عن الاتحاد السوفييتى ، كالوضع فى أمريكا اللاتينية مثلا •

كنت مسرورا بالذهاب الى هناك ، فقد كنت مهتما بالسياسة ، وكان وضعا ممتازا أن أدعى الى هذا الاجتماع ، وأعلم أشياء محجوبة عن الآخرين •

لم أكن حتى الآن ــ بصرف النظر عن الدورة الثقافية القصيرة ، التى اشتركت فيها فى أوائل عام ١٩٤١ ــ الا فردا عاديا ، يتلقى معلوماته من جريدة « برافدا » فقط •

والآن ! ازدادت المعلومات شيئاً طفيفا ، وصار واضحا لى فيما بعد ،

أن هذه هى الدرجة السفلى . يعلوها درجات ؛ فكلما ارتفعت درجة قل العدد ؛ وصار مضمون المعلومات أكثر أهمية •

عندما أعود بذاكرتى الى كثير من الأشياء فى الاتحاد السوفييتى ، يبدو لى أن طابع النظام « الستالينى » ـــ بالنسبة لتوصيل المعلومات ـــ تقسيم الناس الى درجات : الدرجة السفلى ، لا يعرف أفرادها شيئا عما يدور فى وطنه ، ثم تزداد المعرفة مع ارتفاع الدرجة ، حتى تصل الى مجموعة معينة ؛ تكون ملمة بكل شىء •

نشأ عن طريق تقسيم الناس الى درجات بالنسبة للحصول على معلومات ، نوع من الشعور بضرورة الانتماء الى مجموعات ؛ لا تنفصل عن مراكز السلطة فى الاتحاد السوفييتى ، ومما لا شك فيه أن الالتفاف حول شخصيات بارزة فى الحزب هام جدا ، وخاصة فى الاتحاد السوفييتى ، حيث توجه جميع وسائل الاعلام من صحافة واذاعة ؛ وليس لجماهير الشعب أى منافذ للأخبار الا النذر اليسير ؛ أى لا يذاع الا ما لا يزعج السلطة الحاكمة •

لم أفكر فى مثل هذا آنذاك ، بل أنصت بشغف الى المحاضر ؛ وأحيانا كنت أقول لنفسى : من أين يعلمون ما يقولونه ، وهو لم ينشر فى الجرائد ولا المجلات ؟ ولكنى لم أعرف جواب هذا السؤال الا بعد سنة •

انطلقت حملة فى « كاراجندا » ـــ كما فى كل مكان فى الاتحـــاد السوفييتى ـــ للدعوة الى التبرع بملابس وأحذية لجنود الجيش الأحمر الواقفين على خط النار ، استمرت من خريف عام ١٩٤١ الى أوائل عام ١٩٤٢ م • وكانت عملية التبرع ثقيلة على المواطنين ؛ لأن الشتاء فى « كاراجندا » ، اندفع بشدة ، فقد انخفضت درجة الحرارة فى منتصف ديسمبر الى ٤٠ تحت الصفر ، ثم زادت فى آخر ديسمبر الى ٥٠ تحت الصفر وفى يناير الى ٥٥ ، ووصلت فى بعض الأحيان الى ٥٨ درجة تحت الصفر •

ظلت « كازاخستان » بعيدة عن الحرب ، وكان الجو فيها فى عام ١٩٤٢ م يوحى بأنها تعيش فى حالة سلام ، ولأنها بعيدة عن مسرح المعارك ، فلم تقيد فيها الاضـــاءة مدة الحرب كلها ، فكانت « المدينة الجديدة » تتلألأ بأضوائها ، كما فى السلم ، غير أن الحرب أثرت فى مجالات أخرى ، فقد كان وضع المواد الغذائية أسوأ من الأوضاع فى المجالات الأخرى التى رأيتها •

كان الخبز فى ديسمبر عام ١٩٤١ بالبطاقة التى كان فيها صفحات مخصصة للسكر ، والزبد ، واللحم ، ومواد غذائية أخرى ، ولكنها لم تورد •

كنا نحصل نحن الطلبة على ٤٠٠ جرام خبزا يوميا ، ومرتين فى اليوم شوربة ، بدون لحم طبعا ، ومطبوخة بزيت عباد الشمس ذى الطعم الكريه •

لم يشعر أعضاء الحزب ولا كبار موظفى الحكومة ولا العاملين فى المؤسسات الاقتصادية بنقص المواد الغذائية فى بيوتهم فى هذا الوقت العصيب بل كانوا يعيشون كما لو كنا فى حالة السلم ، لأنهم كانوا يحصلون على كل شىء من المحلات المتوارية خلف الكواليس •

وبجانب هذه المحلات المقصورة على « الطبقة الممتازة الخاصة » وجد أيضا أماكن خاصة ، للحصول على الحاجيات المعيشية للمهندسين ، ونساء الضباط و « الطبقة المتوسطة المفضلة » ، الذين لم تفرض عليهم حياة مثل حياة الجماهير ، ولكن وضعهم الطبقى فى الحزب ، لم يمكنهم من الوصول الى المنابع التى توزع على « الطبقة الممتازة الخاصة » •

أما بقية الشعب فكان مجبرا أن يعيش على أية كيفية ، بعضهم كان ينجح فى الحصول على بعض الأشياء بواسطة معارفه أو أصدقائه المقيمين فى القرى حيث لم يزل يوجد بعض المواد الغذائية • كان بعض المهاجرين ، الذين هاجروا مع جميع أفراد أسرتهم فى وضع يمكنهم من ارسال أحد أعضاء الأسرة ليقضى ساعات للحصول على بعض أنواع الغذاء ، وكان هناك آخرون ، يعيشون وحدهم ، جاءوا الى « كاراجندا » بأموال كثيرة ، ولديهم الامكانية المادية فى الحصول على المواد الغذائية من السوق السوداء ، مقابل دفع أثمان باهظة ، حسب ما يطلبه من بيده هذه البضاعة •

لقد كان الوضع بالنسبة لى سيئا جدا ، لأنى كنت وحيدا لا صلة لى بأحد ، ولهذا اعتمدت كليا على الكمية المخصصة لى فى بطاقة التموين • ومن حين لآخر كانت بعض الأسر الصديقة تمنحنى بعض الأشياء ، تلك الأسر الذى مضى على اقامتهم مدة طويلة ، وأقاموا « اتصالات » مع منابع التموين • ولكن لم يغير هذا العطاء حياتى تغييرا جوهريا • كلما قدمت لى مساعدة وتخيلت شكرى للمساعدين دائما ، يشدنى تفكيرى فى معظم الأحوال الى أيام الجوع والبؤس فى « كاراجندا » •

زنجي و « هوبرت » في بلد العجائب

كنت أسير عبر شوارع « المدينة الجديدة » ، جائعا مكتئبا ، عقب انتهاء المحاضرات مباشرة ، فرأيت زنجيا على بعد •

زنجي ؟ لابد أنه « فايلاند روت » ، فهو الزنجي الوحيد في الاتحاد السوفييتي • لقد جاء — حسب علمي — من أمريكا لاجئا سياسيا الى الاتحاد السوفييتي في الثلاثينات ، وفي رأسه كل تلك الآمال والمثالية ، التي كان يتخيلها آنذاك كثير من الناس عن الاتحاد السوفييتي • وهو ممتاز في الغناء ، ورائع في الرقص ، واشترك في تمثيل الفيلم المشهور « السيرك » ، وفي بعض الأفلام الأخرى • وأحيانا كان يكتب بعض المقالات أو يلقي بعض المحاضرات — وبالطبع كتبت له ، ولم يؤلفها من تلقاء نفسه — عن اضطهاد الزنوج في أمريكا وعن الحياة الرغدة في الاتحاد السوفييتي •

تعرفت عليه في موسكو • وعندما رآني قال بطريقته المحبوبة في نطقه المكسر للغة الروسية :

— « هاللو ! ما هذه المفاجأة السارة ، زنجي وألماني يلتقيان في « كاراجندا » ؟

— « ماذا تفعل هنا في « كاراجندا » ؟

سألته مندهشا ، لأني لم أكن أستطيع أن أتصور أن الزنجي سيرحل أيضا ترحيلا اجباريا •

— أوه ! أنا هنا في رحلة مع بعض الفنانين ، وسنعزف « كونشرت » هنا في « كاراجندا » • سأقدمك لهم حالا ، نحن نسكن جميعا في الفندق ، وتستطيع أن تتناول معنا طعام الغداء » •

— آتي معك بكل سرور ، ولكني لا أستطيع أن آكل في الفندق ، لأنه محرم — منذ أول يناير — على غير النزلاء دخول المطعم •

ضحك وقال : « سوف نتغلب على هذا الأمر » •

ورغم الرقابة الشديدة ، وطلب ابراز الأوراق التي تثبت اقامة الداخل الى المطعم في الفندق ، فقد وقف طابور طويل ، أمام باب المطعم ، لأنه أحيانا — وان كان ذلك نادرا — يسمح لغير النزلاء بالدخول ، بعد توزيع الطعام على نزلاء الفندق • كان الأمل في الدخول ضعيفا ، ولكن

على الرغم من ذلك ، فقد وقف ــ دائما ــ كثير من الناس ، وفى بعض الأحيان . يمتد انتظارهم الى أربع ساعات •

وعندما وصل الزنجى مع زملائه ، فتح له الباب قبل أن يصل اليه ببضع خطوات ، فاندفع معه بسرعة بعض المنتظرين ، على أمل أن ينزلقوا بجواره ويدخلوا ، ولكن حارس الباب صاح بلهجة حادة :

ــ « لا يدخل الا من هو مع الزنجى فقط » •

وقفل الباب فى وجهى ، ورأيت صديقى الزنجى من الفتحة الزجاجية يلتفت بعصبية ، وينادى بروسيته المعروفة : « الرفيق الشاب معى » •

وهنا تلاشت شدة حارس الباب ، وانكمش ، ثم فتح الباب ، ونادى : « الرجاء من صديق الزنجى ، الدخول الى صالة المطعم » !

فنظر كل الواقفين الى نظرة اكبار واجلال ، ثم قادنى حارس الباب الى صالة المطعم •

تعجبت من نفوذ صديقى قائلا له :

ــ انه لجميل حقا ، أن تكون الزنجى الوحيد ، الذى يجوب الاتحاد السوفييتى !

ــ نعم ! الناس يقابلوننى بترحاب لا حد له ، فأنا لا أحتاج فى معظم الأحيان الى أن أنتظر دورى فى الصف ، لأنهم يقدموننى على الواقفين فى الصف حين أحضر ، فى أى مكان ، عند الحلاق ، فى محطة السكك الحديدية ، أو فى المحلات •

ثم علمت أن حياته فى ركاب الدولة ، تتأثر باتجاه السياسة الخارجية ، ففى الفترة التى كانت فيها علاقة الاتحاد السوفييتى بأمريكا متوترة ، لم يستطع أن يرفض الدعوات : كان من اللازم أن يغنى ويرقص هنا وهناك ، يدعى الى الولائم والحفلات كممثل لطائفة لزنوج المضطهدة فى أمريكا • ولكن اذا تحسنت العلاقة مع الولايات المتحدة يظل صديقا ، ولكنه يجب عليه أن يختفى فى عالم النسيان ــ بالضبط مثلنا نحن الألمانيين اللاجئين سياسيا ، وجب علينا الاختفاء بعد توقيع معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا الهتلرية •

ثم بدأت أوقات مرة فى حياته ، لأنه سوف يسدل الستار فى هذه الفترة على اضطهاد الزنوج ويحكم اغلاقه بطريقة فجائية ــ حتى لا يتسرب الى الحياة العامة ــ كما حدث يوم أن سلطوا الأضواء عليها فى زمن العداوة . وبالذات فى هذا الوقت ، فقد منحت الولايات المتحدة

الاتحاد السوفييتى قرضا قيمته ١٠ مليار ، وتبدو العــلاقة فى تحسن مستمر • فالأيام عصيبة أمام صديقى الزنجى • فقد أبلغ بعد القرض مباشرة أنه لا يجوز له أن يغنى أغانى زنجية ؛ ثم منع من غناء الأغانى الأمريكية ! فهو يغنى الآن أغانى روسية فقط مثل المغنيين الآخرين ، وأصبحت الدعوات الى الحفلات واللقاءات الحارة أثرا بعد عين •

نجحت حفلة « الكونشرت » فى « كاراجندا » نجاحا كبيرا ؛ فقد صفق المشاهدون تصفيقا حارا ، وصاحوا بعبارات الاستحسان ، للزنجى الذى أسكرهم بغنائه ، وبهرهم برقصه • حقيقة كان رائعا ، ويبدو أن المشاهدين لم يدركوا بعد « الخط الجديد » فى مسألة الزنجى •

اعتقدت فى بادىء الأمر ، أننى أعيش فى « كاراجندا » فى آخر بقعة مهملة فى الكرة الأرضية • ولكنى شعرت بالتدريج أننى أعيش فى مدينة عالمية • فقد ظهر فيها أولا سكرتير عام الحزب الشيوعى الألمانى « فالتر أولبريخت » ، ثم قابلت الزنجى الوحيد الذى يعيش فى الاتحاد السوفييتى . وبعد أيام قليــلة ، وصل الى « كاراجندا » « أليكسى ستخانوف » المشهور ولكنه لم يعد عامل منجم منذ زمن بعيد ؛ بل عين مديرا لأحد مناجم الفحم الكبرى فى « كاراجندا » وأسند اليه القيام بعمل « تغيير جذرى » فى مواقد الفحم •

وأخيرا عندما كنت أتسكع فى الشوارع فى ربيع عام ١٩٤٢ ، رأيت فجأة شخصا يرتدى خرقا قديمة بالية ، يتجه نحوى • لم أصدق عينى هل يمكن أن يحدث هذا ؟ فقد كان « هوبرت » فى بلد العجائب •

تبدأ قصة « هوبرت لوستى » فى عام ١٩٣٤ م ، ففى ذلك الوقت ، كان غلاما صغيرا ، ابن احدى الأسر التى تعمل فى المناجم ، فى منطقة « الزار » ، حيث لم يفكر يوما فى أحلام اليقظة ، بما ستفعل به الأيام فى المستقبل •

وفى يناير ١٩٣٥ م جرى استفتاء شعبى فى منطقة « الزار » لمعرفة ما اذا كان شعب هذه المنطقة يريد الانضمام الى ألمانيا الهتلرية ، أو يبقى مستقلا تحت وصاية عصبة الأمم • وفى هذا الوقت أرسلت « برافدا » مراسلها السوفييتى المشهور « ميخائيل كولوسوف » الى هذه المنطقة ، حيث كان يوافيها يوميا بتقرير صحفى عن سير الأحداث هناك •

وذات يوم فكر « ميخائيل كولوسوف » فى تبنى طفل صغير ، ينحدر

من احدى الأسر التى تعمل فى المناجم ، فى منطقة « الزار » واسم هذا الطفل « هوبرت لوستى » •

سارعت الصحف السوفييتية باذاعة هذا الخبر ، ونشرت صور الطفل وكتبت كل كبيرة وصغيرة عن حياته •

عاد « ميخائيل » بعد انتهاء عملية الاستفتاء الى الاتحاد السوفييتى ، ومعه ابنه المتبنى « هوبرت » وعند وصول الغلام الى الاتحاد السوفييتى ، قوبل بترحاب حار . ودعى الى احتفالات وموائد ، أقيمت خصيصا للترحيب به • ونشرت جميع الصحف صورته ، وكتبت المقالات عنه ، وكان اذا ظهر فى أى مكان . يعلن الحاضرون على الملأ ، بأنه موجود بينهم ، وانتقل من احتفال الى آخر ، وكان يتعذر رؤيته أحيانا ، وهو يتصدر مائدة الاحتفال ، من كثرة الزهور التى أهديت له • ولم تكن أحواله فى البيت بأقل مما يحـــدث له فى المجتمع ، فهو يسكن فى منزل متبنيه « ميخائيل كولوسوف » الذى لم يكن له مركز ولا مكانة فى المجتمع فقط • بل كان يتمتع أيضا بنفوذ كبير ، فهو عضو فى الحزب منذ عام ١٩١٨ م ، وأحد العاملين فى« برافدا » منذ عام ١٩٢٠ م ، وأحد المستشارين فى الوزارة للشئون الخارجية ، وعضو هيئة رئاسة تحرير « برافدا » منذ عام ١٩٣٤ م ، وعلاوة على هذا فهو محرر جريدة « التمساح » الهزلية فى نقدهـــا •

وكان من السهل عليه أن يهيىء للغلام « هوبرت لوستى » الذى انحدر من أسرة ، حرفتها العمل فى المناجم ، حياة هنيئة • وكان مفهوما أن الغلام الذى كان يبلغ من العمر آنذاك ثلاث عشرة سنة ، كان مرتاحا فى حياته الجديدة •

كانت هذه بداية حياته ، وجمع كل ما حدث له فى الاتحاد السوفييتى بالتفصيل ، وأضيف اليه أيضا مدحه ، وثناؤه ، وأقواله التى عبر بها عن اعجابه بالاتحاد السوفييتى ، ثم ظهرت فى كتاب بعنوان « هوبرت فى بلد العجائب » •

تسابق الناس على قراءة هذا الكتاب ، فاشتهر « هوبرت » أكثر وأكثر ، دعى الى الكرملين ، واستقبله هناك المارشال « بودجونى » ، والمارشال « توخاتشيفسكى » وأطلق على الغلمان فى المسرحيات والأفلام اسم « هوبرت » . حتى فى المظاهرات ، ومواكب الاحتفالات ، فقد حملت

صور الغلام الصغير « هوبرت » ذى الشعر الأحمر ، والخدود المتوردة التى ظهر النمش عليها . وأحس حقيقة أنه فى بلد العجائب .

ولكن سرعان ما انحدرت حياة « هوبرت » السعيدة الى قاع سحيق ، قبض على سنده الكبير « ميخائيل كولوسوف » فجأة بتهمة أنه « عدو الشعب » ، وبدأت حياة « هوبرت » بعد ذلك تهبط الى الظلام ، فاختفت صوره ، وتغيرت أسماء الغلمان فى المسرحيات والأفلام وسحب كتاب « هوبرت فى بلد العجائب » من جميع المكتبات ودور الكتب . ولم يعرف الغلام — الذى بلغ فى هذه الأثناء أربعة عشر عاما — ماذا يفعل ! لقد تعود على حياته كبطل شعبى صغير ، ومن الطبيعى أن يكون اجباره على التحول الى أن يعيش كغلام عادى ، أمرا بالغ الصعوبة بالنسبة له .

استطاع أن ينتقل الى بيت الأطفال رقم ٦ — الذى كنت أقيم فيه — عن طريق وساطة بعض الأصدقاء ، الذين لم يكن قد قبض عليهم بعد . فأصبح أحد نزلاء دارنا التى نقيم فيها . ثم تعود بالتدريج على حياته الجديدة وأنشأ صداقات مع بعض القاطنين فى البيت ، وكنت ضمن أصدقائه . وبعد سنة أو سنتين رضى بالخروج من وضعه كـ« هوبرت فى بلد العجائب » . والاندماج فى حياة عادية كـ« هوبرت لوستى » .

ولم يمض على تعوده على الحياة الجديدة فى بيت الأطفال سوى وقت قصير ، الا وأصيب بضربة جديدة فى أغسطس عام ١٩٣٩ م ، فقد صفى بيت الأطفال عقب عقد معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا الهتلرية ، وكان هذا ضربة مؤلمة لنا جميعا ، ولكنها كانت أكثر ايلاما لـ« هوبرت » الذى لم يكد يتعود على الظروف الجديدة ، الا وقد أزيح خطوة أخرى الى الوراء .

حدث هذا فى أغسطس سنة ١٩٣٩ م ، ونحن الآن فى ربيع عام ١٩٤٢ م ، أى لم أره منذ عامين ونصف ، ولم أعلم أيضا ماذا حدث له ؟ ويقف أمامى الآن ، فى ملابس ممزقة ، مهلهلة ، وعلى وجهه مظاهر الجوع والحرمان ، ويدا وكأنه متشرد .

ومن المحتمل أنى لم أبدو آنذاك فى وضع أحسن من حالة « هوبرت » التى أزعجتنى رؤيتها عندما بدت أمامى . تحدث معى — دون قصد — باللغة الروسية ، فقلت له :

— « أنت لا تحتاج الى أن تتحدث معى باللغة الروسية ، تستطيع أن تتحدث باللغة الألمـانية » •

فضحك ، ولكنها كانت ضحكة حزينة ، ثم قال :

— « لم يعد من عادتى التحدث بالألمـانية ؛ فقد مضى وقت طويل ، لم أتحدث فيه مع أحد بالألمـانية » •

وعقب هذا مباشرة ، انقلب حديثه باللغة الروسية مرة ثانية ، وبدأ يحكى قصته •

لقد جىء به — مثل كل الألمـانيين — الى قسم الشرطة فى خريف عام ١٩٤١ م ورحل ضمن أول مجموعة ترحل الى منطقة « كاراجندا » ولم تكن حالته مثل الألمـانيين الذين رحلوا فى مجموعتنا ، فبينما استقروا فى مجموعات ، أرسل هو وحده الى قرية نائية فى منطقة « كاراجندا » ، وبدأ العمل فى اليوم التالى لوصوله مباشرة فى احدى المستعمرات :

— وماذا تعمل فى المستعمرة ؟

— أرعى المواشى •

نظرت اليه ، وقف أمامى قذرا ، مهلهل الثياب ، لغته روسية ، ولم يذكرنى بـ« هوبرت فى بلد العجائب » السابق ، سوى عينيه البراقتين ، والنمش الذى على وجهه •

ولكنه لم يشك لأحد من قسوة ظروفه ، بالضبط كما فعلت أنا ، فقد كان من الأمور المسلمة عندنا ، أن من الممكن فى الاتحاد السوفييتى ، انحدار المرء من أعلى القمم الى أسفل السافلين ، وبالعكس أيضا •

أردت أن أتحدث معه ، لأنى أحببت استطلاع ما عنده ، وللأسف لم تمكنى الظروف من ذلك ، فقد هز رأسه فجأة ، وقال :

« يا لطيف ! لا يجوز لى اطلاقا أن أتسامر وقتا طويلا ، فلقد أرسلت الى هنا لشراء بعض الحاجيات ، ولا يجوز لى التغيب عن المستعمرة الا بضع ساعات فقط ، فلو لم أعد فى الوقت المحدد ، لحدث ما لا يحمد عقباه » •

فهمت وضعه ، ثم ودعته •

شيعت بنظرات الحسرة صديقى من بيت الأطفال رقم ٦ ، البطل السوفييتى السابق ، وراعى المواشى بثيابه المهلهلة حاليا • زائر الكرملين فيما مضى من الزمن ، والخائف الآن من قومندان احدى المستعمرات الصغيرة •

حاولت مرارا الاتصال به فيما بعد ، ولكن دون جدوى ، فقد اختفى « هوبرت فى بلد العجائب » ولم يظهر حتى الآن .

* * *

التلغراف الغامض

مكثت فى معهد « كاراجندا » للمعلمين نصف عام ، ثم بدأت فى مواصلة رحلتى المقررة فى آخر مايو سنة ١٩٤٢ ، الى « ألمـا — أتا » لألتحق بالمعهد الذى هجر الى هناك .

لو كنت أعلم ما سأعانيه ، ما أقدمت على السفر : ٥٠٠ كيلو متر سفر بالقطار عبر المنطقة الجرداء « جولودنايا ستيب » الى « بالخاش » ، تلك المدينة الجديدة التى توجد بالقرب من مناجم النحاس السوفييتية ، وسفر بالمركب فى بحيرة « بالخاش » حيث شطحت المركب فى صخور رملية ، ونفذ ما معنا من طعام ، فأشرفت على الهلاك من شدة الجوع ، الى أن استطعنا الوصول أخيرا الى « كاراشاجان » وهى منطقة صغيرة على الشاطىء الشرقى لبحيرة « بالخاش » ، ثم رحلة فى جو شديد الحرارة فى سيارة نقل مكتظة بالراكبين عبر صحارى « زارى اشيك أوتراوى » الى « ليبسى » وهى محطة عند « توركزيب » ، وهى تبعد عن الحدود الصينية بمائة كيلومتر ، حتى وصلت الى « ألمـا — أتا » بعد سفر عشرة أيام ، حيث علمت أن المعهد امتلأ بالطلاب ، وليس فيه مكان لدارس جديد ، وقد قفل باب تقديم الطلبات .

وبدأت سفرا آخر من « ألمـا — أتا » متجها هذه المرة شمالا الى « نوفوزيبرسك » حيث اضطررت مع آلاف من المسافرين أن نقيم أياما على رصيف المحطة كالبهائم فى الحظائر . ولم أكن أتناول سوى ٣٠٠ جرام من الخبز المبلول يوميا ، حتى استطعت مواصلة السفر الى « بيتروبافلو » ومن هناك واصلت السفر لمدة ٣٣ يوما حتى وصلت مرة أخرى الى « كاراجندا » .

لم أصل الى هدفى ، ومع ذلك لم أندم على السفر عبر « كازاخستان » و « سيبيريا » فى وقت الحرب ، فقد رأيت فى هذه الشهور أشياء كثيرة فى الاتحاد السوفييتى ، وتعلمت أكثر مما تعلمته فى سنوات عديدة فى موسكو .

فقد حولت هذه الرحلة كثيرا مما كنت أظنه الى حقيقة ، وأكدت بعض المعلومات عندى . رأيت المصانع الكبيرة الضخمة ، التى تحولت

obeikandl.com

بواسطتها من بلد زراعى متخلف الى بلد صناعى ، ولكنى رأيت فى نفس الوقت أنه لم يعمل شىء لهؤلاء الذين يعملون فى هذه المصانع وما قدم لهم من خدمات ، فهو ضئيل جدا .

ورأيت مرة أخرى الفرق الشاسع بين الطبقة الممتازة من مديرين واداريين ومهندسين وبين العمال العاديين .

لقد أعجبت بالخط الحديدى الضخم من « تركستان » الى « سيبيريا » ، وفى الوقت نفسه شاهدت أثناء الحرب بؤس الشعب الذى يعجز القلم عن وصفه .

حاولت الدعاية السوفييتية — ولا زالت — اقناع الشعب بأن فقره وجوعه — أثناء الحرب — نتيجة للنظام النازى ، الذى شن حربا على الاتحاد السوفييتى ، فبدد جهوده للقضاء على حرمان الشعب السوفييتى ، بينما الوضع بالعكس فيما جاء فى بعض تحليلات الأسرى الألمانيين ، فقد نسبوا فقر هذا الشعب الى طبيعة النظام السوفييتى ، وهو موجود وسيظل ولو لم تشن حرب على هذه الدولة .

ظهر لى أن غالبية السكان من الطبقة المتوسطة ، غير أنه مما لاشك فيه أن حالة الحرب رفعت نسبة البؤس بين طبقات الشعب ، ولكن كانت حياة الناس من قبل الحرب سيئة أيضا ، لأن جزءا قليلا من جهود الدولة كان لتقديم الخدمات الى الطبقة العاملة ، والتركيز كله كان موجها الى بناء الصناعات الثقيلة ، والى تسهيل العيش اللين الرغد ، للزعماء ، وكبار الدولة ، وهى طبقة صغيرة فى عددها بالنسبة الى تعداد السكان .

ومما لا شك فيه ، أنه يوجد أيضا — كما فى كل بلد — أناس أنانيون ، وحشيون ، ولكن تحملت الغالبية قدرها بشجاعة ، وساعدت البؤساء . تعرفت أثناء هذه الرحلة على سكان الاتحاد السوفييتى أكثر من ذى قبل ، وقدرتهم ، واحترمتهم ، ومن الضرورى أن أؤكد هذا الآن ، لأن كثيرا من الغربيين ، الذين يعارضون النظام الحاكم فى الاتحاد السوفييتى . يحملون الشعب السوفييتى تبعة قيامه . وأهز رأسى دائما مستنكرا ، اذا قابلت شخصا ، ينظر الى « الروسيين » نظرة احتقار ، لأن بعضهم وقف عاجزا أمام منجزات الحضارة الغربية .

وواضح أنهم ينسون أن هؤلاء الناس ليسوا أقل قيمة من الناس فى الغرب .

عدت الى « كاراجندا » فى نهاية يونيو سنة ١٩٤٣ . الى أين ينبغى أن أذهب الآن ؟ الى معهد المعلمين ؟ لقد سحبت أوراقى منه .

وهكذا قررت أن أذهب أولا الى أصدقائى فى اللجنة المحلية لـ« رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » . اندهشت سكرتيرة الرابطة لرؤيتى مرة أخرى ، ثم قالت :

— « الآن ! لم تنجح فى « ألما — أتا » أيها الرفيق « ليونهارد » ؟

فأومأت برأسى

— « هل تريد البقاء فى « كاراجندا » ؟

— « نعم ! فأنا أعتقد أن البقاء هنا أحسن » .

— « جئت فى الوقت المناسب ! لقد ووفق لنا على انشاء وظيفة جديدة ألا وهى مشرف للرابطة فى « كاراجندا » ، وسيكون مجال عمل من يعين فيها : اللاجئين السياسيين . واقترحت تعيينك فيها ، وللأسف كنت قد سافرت . ولهذا سأرفع الاقتراح بتعيينك حالا الى اللجنة المحلية للحزب » .

كنت قد سرحت فى رحلتى التى قمت بها ، فكنت أرى أمامى « بالخاش » ومناظر الجوع على المركب ، والمرور بعد ذلك عبر صحارى « كاراشاجان » ، والسفر الى « ليبسى » ، ومشاهد اليأس والقنوط فى مكاتب المدينة الجميلة « ألما — أتا » و « توركزيب » والأيام على محطة « نوفوزيبرسك » فلم أعط جوابا لسكرتيرة الرابطة ، ولكنها فسرت صمتى تفسيرا سيئا ، فقد اعتقدت أنى متردد ، فأردفت تقول :

« سوف تناقش معى — بصفتك مشرفا — كل شىء هنا ، وتنوب عنى هنا فى حالة قيامى بمهمات خارجية ، والمرتب « ٥٠٠ روبل » شهريا وسنبحث لك عن مسكن مناسب » .

وأدركت الآن فقط ما يعرض على ، فوافقت . وتلقيت الجواب فى اليوم التالى :

« وافقت اللجنة المحلية للحزب على تعيينك ، والسكن جاهز لك » .

وسرت مع من يصحبنى الى السكن فى شارع « اعلان لينين » حتى وقفنا أمام منزل جديد وجميل من أربعة طوابق .

— « هنا مسكنك » .

دلفت الى مطبخ كبير ، يبدو أنه أعد ليستعمله المؤجر حجرة من

الباطن ، وبجانب المطبخ الخاص حجرة متوسطة ، تسع سريرا وكرسيا ، ودولابا صغيرا • ثم قيل لى : « ان هذه الحجرة سوف تؤسس اليوم » فكدت أن أطير من الفرح •

لم أسكن فى حجرة منفردا ، منذ أن جئت الى الاتحاد السوفييتى حتى الآن ، فقد كنا فى مساكن الطلبة فى موسكو ، اثنين أو ثلاثة فى الحجرة وفى معهد المعلمين فى « كاراجندا » كنا عشرين فى حجرة واحدة ، وفى رحلتى كنت أفرح ، لو وجدت مكانا صغيرا بين الجموع المحتشدة فى أمكنة الايواء ، والآن أصبحت لى وحدى حجرة بمطبخها •

بدأت عملى بعد يومين كمشرف فى « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » فى اللجنة المحلية للحزب فى « كاراجندا » •

ـــ « والآن أيها الرفيق « ليونهارد » ! هاهو ذا مكتبك . هو صغير ، ولكنه يكفى • لقد وضعت لك عليه كل الأشياء التى يمكن أن تتصفحها » •

ـــ « لم أعلم بالضبط ، ما هو نوع العمل الذى سأقوم به على وجه التحديد » ؟

ـــ « مطلوب منك الاهتمام بالألمـانيين اللاجئين سياسيا ، الذين يقيمون فى منطقة « كاراجندا » •

ثم أعطتنى قائمة بأسماء ٥٨ لاجئا ألمـانيا . وكتبت أمام كل اسم : اسن ، ومكان الميلاد ، وعنوان العمل السابق • وأخذت بالاضافة الى ذلك محفظة للأوراق مثبت فيها صور مكاتبات ومستندات •

ـــ « سيكون من واجباتك تلقى مكاتبات اللاجئين الألمـانيين والرد عليها ، ويجب عليك أن تقدم اقتراحات لسد الحاجات التى تنقصهم فى حدود الامكانيات المتاحة لنا ، فاذا احتجت الى مراسلة جهات رسمية فاكتب الخطاب ثم قدمه الى لأوقعه ، وبجانب ردك على المكاتبات ، فأقترح أن تقوم برحلات فى منطقة « كاراجندا » لتزور الرفقاء فى أماكن اقامتهم • وفى هذه الحالة يجب عليك فى نفس الوقت زيارة منظمة الرابطة فى المنطقة التى تزورها ، واذا حصلنا على مواد غذائية ، وصابون ، وأقمشة فسوف تتولى توزيعها على الألمـانيين اللاجئين ، المكلف برعايتهم ، لأن مطالبهم الضرورية ، لها الاعتبار الأول عندنا » •

انطلقت الى عملى الجديد بحماس ، تصفحت الأور ق ، ثم وضعت

obeikandi.com

خطة لزيارة الرفقاء ، منطقة بعد أخرى ، ولكن للأسف لم يكن هناك فى هذا الوقت شىء لتوزيعه عليهم ، ولكننى أردت بعد القيام بزياراتى وضع قائمة بالأشياء الضرورية للاجئين كى أساعدهم فى الحصول على ما هو ضرورى جدا •

مرت الأيام بسرعة ، كنت أفكر دائما فى مؤتمر اللاجئين الذى عقد فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ، فسعيت جاهدا لعمل كل ما يمكن لمساعدة الرفقاء • وكنت مرتاحا جدا ، لا لأنى أقوم بعمل ما ، ولكن لأنى أقوم بعمل ، يبدو لى أنه ضرورى جدا • فلو كنت أنظر الى « كاراجندا » ، حتى الآن ، على أنها محل اقامة مؤقتة لى ، فانى أتمنى فى هذه اللحظة أن تطول هذه الاقامة •

ولكن طرأت حوادث بعد ذلك بوقت قصير ، قلبت مشاريعى رأسا على عقب : فبعد ثلاثة أسابيع من تعيينى مشرفا فى « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » توجهت الى مقر العمل ذات يوم صيفى مشمس وأنا خالى الذهن تماما • ولم أكد أدخل حتى ناولتنى سكرتيرة الرابطة تلغرافا قائلة :

« هذا لك » •

قرأت : « ينبغى على الرفيق « ليونهارد » الحضور الى « أوفا » » فورا •• » • « فيلكوف »

« أوفا » ؟ •• أنا أعلم أن « أوفا » عاصمة جمهورية « بشكير » السوفييتية المتمتعة بالحكم الذاتى ، وتقع على بعد ٣٠٠٠ كيلو متر غربى « كاراجندا » •

اذن •• يجب على مرة ثانية القيام برحلة طويلة •

« أوفا » ؟ فهذه هى المدينة التى يوجد فيها قيادة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ورئاسة اللاجئين من أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى •

وبعد دقائق طلب التليفون سكرتيرة الرابطة ، ولكن الحديث كان قصيرا •

« ينبغى عليك الذهاب فورا الى قسم التدريب العسكرى فى اللجنة المحلية للحزب » •

ومرة أخرى — كما فى نوفمبر سنة ١٩٤١ — ذرعت مقر اللجنة المحلية باحثا عمن طلبنى ثم حط بى الرحال عند سكرتيرة الحزب لشئون التدريب •

ـ « اسمى « فولفجانج ليونهارد » استدعيت للحضور الى هنا قبل دقائق » •

نظرت الى نظرة قصيرة متفحصة ، ثم قالت بلهجة حادة :

« جاءنا تلغراف من « أوفا » بطلب سفرك الى هناك فورا فاذا وصلت فتوجه الى اللجنة المحلية لـ« رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ومن هناك ستوجه الى الجهة التى طلبتك • ومن الأفضل الاسراع بالسفر ما أمكن ، وسوف تحصل غدا على التذكرة ومصاريف السفر من هنا » •

كان هذا كل ما فى الموضوع •

لم تذكر هى الأخرى كلمة واحدة عن سبب السفر المفاجىء الى « أوفا » ، ولا عرفتنى من هو « فيلكوف » ومن الطبيعى أنى أعلم ، أنه لا يجوز السؤال عن مثل هذه الأشياء •

كان من الممكن أن أفرح كثيرا ، لو استدعيت الى « أوفا » قبل أربعة أسابيع • وأنا مسرور أيضا بهذا الاستدعاء ، ولكن السرور تبخر ، فقد حصلت على عمل ، ومسكن ؛ وصار لى أصدقاء • ويجب الآن ترك كل هذا ـ وبالذات الآن ، حيث اندمجت فى الحياة هنا اندماجا كليا • ولكن لا ينفع شىء الآن ، فقد تربيت على المحافظة على النظام ، وتنفيذ الأوامر بدقة ، وأنا مكلف الآن بالسفر الى « أوفا » بأسرع ما يمكن •

واليوم أعلم ، أنه تم تنفيذ تغيير حياتى فى تلك الأيام تغييرا جذريا ، فقد أتيح لى التعرف على الاتحاد السوفييتى من زاوية جديدة ، مختلفة تمام الاختلاف عن موقفى السابق ، بالنسبة للتعرف على مجرى الأمور فى هذا البلد ، اذ دخلت آنذاك فى طبقة الأعضاء القياديين فى الحزب •

لم يكن واضحا لى آنذاك ماذا يعنى هذا التغيير ، ثم بدأت أشعر فيما بعد أننى تخلصت من كل المتاعب السابقة ؛ وتذلل أمامى كل عقبة تعترض سبيلى ، فلا نوم على رصيف محطات السكك الحديدية ، ولا صراع للحصول على تصريح اقامة ، ولا جرى بين المكاتب ، ولا جوع • ولكن ينبغى أن أدرك فى الوقت نفسه ، أن جو هذه الطبقة له ظلال أيضا ، أعنى الرقابة المستمرة ، والرتابة الذاتية ، وهذا لم يكن موجودا فى

حياتى السابقة التى عشتها كانسان عادى فى الاتحاد السوفييتى ، كنت فيها حرا تقريبا .

تحرك القطار من « كاراجندا » فى وقت متأخر من بعد الظهر ، وسافرت مرة أخرى عبر الصحارى الـ« كازاخستانية » التى أراها لآخر مرة . اتجهنا الى الشمال حتى « بيتربافلوفسك » ، ومن هناك نحو الغرب الى « أوفا » .

كانت نفس الطريق ، التى قطعتها فى نوفمبر سنة ١٩٤١ تحت الحراسة كمرحل ترحيلا اجباريا ، الا أن القطار يسير الآن فى الاتجاه المعاكس . وكان بالنسبة لى أكثر من تغيير جغرافى لاتجاه معاكس ، وصلت الى « أوفا » حيث توجد جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .

* * *

oboeikandil.com